شيران

جنازة سماوية



ترجمة: عبد المجيد يوسف

مراجعة: محمد الخالدي

رواية

مسكيلياني



جنازة سماوية

الكاتبة: **شينران**

عنوان الكتاب: **جنازة سماويّة**

ترجمة: **عبد المجيد يوسف**

مراجعة: **محمّد الخالدي**

تصميم الغلاف: **الشاعر محمّد النبهان**

خط الغلاف: **الفنّان سمير قويعة**

تنضيد داخلي: **سعيد البقاعي**

ر.د.م.ك: **978-9938-24-007-8**

الطبعة العربية الأولى: 2019



مسكيلياني للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

شينران

جنازة سماوية

ترجمة: عبد المجيد يوسف
مراجعة: محمد الخالدي

عنوان النسخة المعتمدة في هذه الترجمة
Xinran
Funérailles Célestes



حينَ كنتُ في الخامسة من عمري فاجأني في أحد شوارع بيكين مقطعٌ من حديثٍ استقرّ في ذاكرتي فورًا، ولم يفارقني منذ ذلك اليوم.

- لقد قطع التيبتيّون جسمه إربًا إربًا ورموا به إلى النّسور.

- ماذا؟ ألأنّه قتل نسرًا؟ أحدُ جنودنا دفع حياته ثمنًا لطائرٍ من الكواسر؟

حدث ذلك سنة 1963، وكان الناس في الصّين نادرًا ما يتحدّثون عن التّيبت، وقلّة هم الّذين كانوا يعرفون هذا البلد. كنّا، بالطّبع، نقرأ مقالات في الصّحف عن «تحرير» التّيبت البطوليّ المجيد، ولكن عدا هذا، لم يكن يردنا من المعلومات إلاّ النزر اليسير. وأنا طفلة، ردّدتُ في ذهني هذا المقطع من المحادثة مرارًا وتكرارًا، ساعيةً إلى فَهْمِ معناه، ثمّ انتهى الأمر به إلى التلاشي في قرار الذاكرة.

في سنة 1994، كنت أعمل صحفيّة بـ «نانكين»، أقدّم حصّةً إذاعيّةً ليليّةً تتناول مختلف مظاهر حياة النّساء الصّينيّات. وفي إحدى اللّيالي اتّصل بي أحدُ مستمعي البرنامج من «سوزهو»[1] ليقول لي

(1) مدينة شرق الصّين على 100 كلم من شانغهاي (10 ملايين ساكن اليوم) (ويكيبيديا – كلّ الإحالات من هذه الموسوعة الحرّة).

إنّه التقى في الطّريق بامرأةٍ غريبة، وقد اشتريا حساء الأرزّ من متجرٍ وجعلا يتحدّثان. كانت المرأة عائدةً للتوّ من التّيبت. وقد خمّن أنّ محاورتها قد تكون أمرًا مهمًا. قال إنّ اسمها «شو وين»، ومدّني باسم الفندق الصّغير الّذي تقيم فيه.

عاودني فضولي فسافرت على متن الحافلة في رحلة دامت أربع ساعات، من«نانكين»[1] إلى«سوزهو»، وهي مدينة كثيرة الحركة، حافظت -رغم المخطّط التّحديثيّ العصريّ- على جمالها، على قنواتها وبيوتها البهيّة بساحاتها، وأبوابها «القمريّة»، وأسوارها المنقوشة وحدائقها المائيّة ذات النّوافير، وعلى عاداتها الموروثة عن الأجداد في صناعة الحرير.

وهناك، في محلّ لتقديم الشّاي مجاور للفندق، وجدتُ امرأةً مُسنّةً بلباس التّيبت، تنبعث منها رائحةُ جِلْدٍ قويّة، وحليب فاسد، وروْث. كان شعرها الرّماديّ يتدلّى في شَكْل ضفيرتَيْن مهملتين. وجلدُها مجعَّدًا ومُنَمَّشًا. لكن، رغم مظهرها التّيبيتيّ كان وجهُها وجهَ امرأة صينيّة، بأنف صغير أفطس بعض الشّيء، وفم كحبّة مشمش. وقد أقنعتْنِي لهجتُها بأنّها صينيّة بلا ريب. فَلِمَ إذن تلك الملابس التّيبتيّة؟

استمعتُ إليها طيلةَ يومين وهي تروي حكايتَها. وحين رجعتُ إلى «نانكين» أُصبت بالدّوار. وأدركتُ بأنّي قد عثرت على المفتاح

(1) هي عاصمة إقليم جيانغ تسو. معناها الحرفي عاصمة الجنوب مقابل بيكين عاصمة الشّمال.

الّذي سيكشف لي معنى ذاك الحديث الآسر الذي التقطتُه في «بيكين» منذ سنوات ماضية، حين كنت طفلة. وفهمتُ أيضًا أنّي قد التقيت، لتوّي، بإحدى أكثر النّساء استثناءً من اللّاتي قد تتسنّى لي لقياهنّ في حياتي.

1

«شو وين»

لا يسَعني القول إلى أيِّ حدٍّ ندمتُ على كلّ تلك الأسئلة السّخيفة الّتي طرحتها على «شو وين» في محلّ الشّاي ذاك «بسوزهو». حينها كنتُ أجهل أشياء كثيرة.

كانت عيناها الغامضتان تنظران إلى ما ورائي، إلى العالم عبر النّافذة، إلى الشّارعَ المزدحم وحركة المرور الصّاخبة وصفوف الأبنية الحديثة... ما الّذي كانت تراه هناك فيشدّ اهتمامها؟

حاولتُ أن ألفت انتباهها:

- كم من الوقتِ لبثتِ في التّيبت؟

- أكثر من ثلاثين سنة، ردّت بصوت رقيق.

- ثلاثون سنة؟

كانت دهشتي شديدة حتّى إنّ زبائن قاعة الشّاي الآخرين قطعوا محادثاتهم والتفتوا إلينا.

- ولكن لماذا ذهبتِ إلى التّيبت ؟ لأيّ سبب؟

- من أجل الحُبّ، أجابت ببساطة.

- من أجل الحُبّ؟

- كان زوجي طبيبًا في جيش التّحرير الشّعبيّ. وقد أُرسلت وحدتُه إلى التّيبت. وبعد شهرين تلقّيتُ رسالة تعلمني بأنّه قُتِلَ في معركة. ولم يمض على زواجنا أكثر من ثلاثة أشهر.

- أنا آسفة، قلتُ ذلك متأثّرة بفكرة أن تصبح امرأةٌ شابّة أرملةً في وقت مبكّر جدًّا.

- رفضتُ أن أقبل موتَه. ولم يكن أحد في مقرّ القيادة العسكريّة العامّة قادرًا على أن يخبرني في أيّ ظروف قد لقيَ حتفه. فلم يبْقَ لي إلاّ أن أرتحل بنفسي إلى التّيبت بحثًا عنه.

نظرتُ إليها نظرة ثاقبة من دون أن أصدّقها، إذ لم يكن في وسعي أن أتخيّل كيف تمكّنتْ امرأة شابّة، في سنة 1950، من الحُلْم بالذّهاب إلى مكان بعيد جدّا ومُرعب كالتّيبت.

- كنتُ شابّة وكنتُ مُتيَّمَة، ولم أفكّر في ما يمكن أن يعترض سبيلي، كان همّي الوحيد هو العثور على زوجي.

أطرقتُ وكلّي حيرة.. ما الّذي كنت أعرفه عن قوّة عشق كهذا؟ لقد سمعتُ حكايات حبّ كثيرة أثناء برنامجي الإذاعيّ، لكن لم تكن قصّة واحدة من تلك الحكايات تشبه هذه الحكاية. كانت مستمِعاتي ينتمين إلى مجتمع يشيع فيه قمع العواطف والتكتّم على الأفكار. ولم أكن أتخيّل أنّ الشّباب من جيل أمّي يقدرون على أن يُغرموا بمثل هذا الشّغف. فالنّاس لا يتكلّمون كثيرًا في تلك الفترة، وحين يتعلّق الأمر

بالصّراع الدّامي بين الصّين والتّيبت[1] يصبحون أشدَّ تحفّظًا.

- كيف التقيت بزوجك؟

- في مدينتكم «نانكين». ردّت على الفور وقد لانت نظراتها بعضَ الشيء: ولدتُ هناك، وكُنّا أنا و«كجون» طالبَيْن في كلّيّة الطّبّ.

ذاك الصّباح، حدّثتني «شو وين» عن شبابها. كانت تتحدّث حديثَ من لم يتعوّد على المحاورة، وكثيرًا ما تنقطع عن الكلام، وأحيانًا يزوغ بصرها. لكن، بالرغم من مرور كلّ تلك السّنين، مازالت كلماتها تفضح حبّها الخارق الّذي ما فتئت تكنّه لزوجها.

- كنت في الخامسة عشرة حين استولى الشّيوعيّون على كامل البلاد سنة 1949. أذكرُ موجةَ التّفاؤل الّتي هبّت على الصّين في تلك الأيّام، وأذكُرُ كَمْ تحمّستُ لها. كان والدي عاملًا بشركة غربيّة، وكان عصاميًّا لم يحصّل أيّ مستوى تعليميّ. لذلك أصرّ على أن نكون -أنا وأختي- مُتَعلِّمَتَيْن. وهو ما مثّل فرصةً عظيمةً لنا، فقد كانت غالبيّة الشّعب متكوّنة آنذاك من مزارعين أمّيّين. أرسِلتُ إلى مدرسة دينيّة ثمّ إلى معهد «جينغ-لينغ». وبعد سنتين، تمكّنتُ من الالتحاق بالجامعة لدراسة الطّبّ، واخترت التّخصّص في طبّ الأمراض الجلديّة.

- عندما التقيْنَا كان «كجون» في الخامسة والعشرين من العمر، وكنتُ في الثّانية والعشرين. حينَ رأيتُه للمرّة الأولى، كان

---

(1) وقع الغزو الصّينيّ للتيبت في أكتوبر 1950 وانتهى بتوقيع اتّفاق من 17 نقطة والاعتراف بالتّيبت أرضًا صينيّة من طرف 17 دايلي لاما.

يعملُ مساعدًا بمخبرٍ تابع لأحد أساتذة التّشريح. لم يسبق لي أن رأيتُ جسمَ إنسان يُشَرَّح. فظللتُ مختبئةً وراء رفاقي كحيوان مذعور، وتوتّري يشتدّ كلّما ألقيتُ نظرةً على الجثّة البيضاء المحفوظة في محلول الفرمولين. نظر إليّ «كجون» وابتسم مرارًا. بدا أنّه يفهمني ويتعاطف معي. وبعد ذلك، زارني في أحد الأيّام وأعارني كتابًا يتضمّن رسومًا تشريحيّة ملوّنة، وقال لي إنّي سأتغلّب على خَوْفي بدراسة هذه الرّسوم. وكان مُحِقًّا. ومنذ تلك اللّحظة، أصبح «كجون» يُجيب عن كلّ أسئلتي بصبر. وسرعان ما غَدَا أكثرَ من أخٍ أكبر ومن أستاذ. وبدأتُ أحبّه من كلّ قلبي.

كانت عينا «شو وين» في غاية الهدوء، مسمّرتين على شيء لا أراه.

– كان الجميع معجبين بـ«كجون». لقد فقد جميع أفراد عائلته في الحرب الصّينية اليابانيّة، فتكفّلت الحكومة بتكاليف دراسته الطّبّ. لذلك عقَدَ العزم على تسديد دَينه، وظلّ يعمل بكدّ، حتّى صار طالبًا استثنائيًّا. كان لطيفًا مع كلّ النّاس وخاصّة معي. وكنتُ شديدةَ السّعادة. ثمّ عاد أستاذ «كحون» من زيارة لساحات القتال في الحرب الكوريّة[1] وروى لـ«كجون» أنّ الجنود الجرحى وفاقدي الأعضاء في هذه المعارك الطّاحنة لا يجدون علاجًا، وهم يحتاجون إلى أطبّاء وأدوية، وأنّ تسعةً من عشَرةٍ منهم يقضون نَحْبَهُم.

(1) 1950/1953.

- تأثّر «كجون» بكلام أستاذه تأثّرًا شديدًا، وقد روى لي ذلك. كان الجيش في حاجة ملحّة إلى جرّاحين، وفكّر في أنّ عليه الالتزامَ بالخدمة. لقد خشيتُ على حياته، لكنّي لم أشَأْ أن أثنيَه.

في ذلك الوقت، كنّا جميعًا نمرّ بمِحَنٍ مختلفة، لكنّنا كنّا ندرك أنّ ذلك من أجل مصلحة البلد. وكان كلّ شيء في الصّين يتغيّر. كثير من النّاس يحزمون حقائبهم ويرحلون إلى المناطق الرّيفية الفقيرة لينجزوا الإصلاح الزّراعيّ، أو يتوجّهون إلى المناطق الحدوديّة لتأهيل المساحات الشّاسعة القاحلة. أمّا نحنُ، فقد كان فراق من نحبّ في نظرنا مناسبةً للبرهنة على أداء واجبنا نحو الوطن الأمّ.

لم تخبرني «شو وين» إلى أينَ أُرْسِل «كجون» لأوّل مرّة. وما قالته هو أنّه ظلّ غائبًا لمدّة سنتين.

سألتُها عمّا إذا كانا يتبادلان الرّسائل، فحدجتني بنظرة قاسية، فخجلتُ من جهلي.

- أيّ منظومة للبريد تتخيّلين وجودَها يومئذ؟ لقد أحدثت الحرب فوضى عارمة. وكانت كلّ نساء الصّين ينتظرن أخبارًا من أزواجهنّ وإخوتهنّ وأبنائهنّ، لستُ الوحيدة ولا خيار لي سوى التألّم في صمت. لم يصلني خبر عن «كجون» طيلة سنتين. ولم يكن في الفراق أيّ حسّ رومنسيّ كما كنت أتخيّل... كان الأمر فظيعا. والوقت يكاد لا يتحرّك. فخِلْتُ أنّي سأجنّ. ثمّ عاد «كجون» مُوَسَّمًا. وأَرْسَلتْه وحدته ليتابع دروسا مكثّفة في اللّغة والطبّ التّيبتِيَّيْن.

وفي السّنتين المواليتين تأكدّ شغفُ أحَدِنا بالآخر. وبَدَأتْ الحياة في الصّين تتحسّن يومًا بعد يوم. صار لكلّ فرد عمل. ولكنّنا لم نعمل من أجل مُديرين رأسماليّين، بل لفائدة الحكومة ومن أجل الوطن الأمّ. كانت هناك مدارس ومستشفيات مجّانيّة. وكان يُقال لنا إنّ اقتصاد الصّين بفضل سياسة الرّئيس «ماو» سينافس اقتصاد إنجلترا وأمريكا في غضون عشرين عاما فقط. وكانت لنا كذلك حريّة اختيار الشّريك في الزّواج، بدلاً من الرّضوخ لاختيار الأهل.

لّما أتمّ «كجون» دراسته قرّرنا أن نتزوّج. كان ينتظر أوامرَ من القيادة العامّة. وكنت أشتغل طبيبة مختصّة في أمراض الجلد بمشفى كبير في نانكين. كان أصدقاؤنا ومعظمهم لهم أبناء، يرون أنّنا قد أخّرنا زواجنا بما يكفي. فـ«كحون» في التّاسعة والعشرين وأنا في السّادسة والعشرين. وهكذا طلبنا الإذن في الزّواج من الحزب. كان من الصعب على والدي أن يقبل فكرةَ زواجٍ تُمنح فيه حريّة الاختيار للزّوجين، لكنّه كان يحبّ «كجون» كثيرا، ويعلم أنّي لم أكن مخطئة. ومهما يكن من أمر فإنّي لو أخّرتُ ذلك الزّواج أكثر لصار ذلك وصمة عار بالنّسبة إليه، خاصّةً بعد أن تزوّجتْ أختي الكبرى، ورحلت إلى «سوزهو» مصطحبةً والدَيْنَا معها.

أُحتُفل بزواجنا حسب التقاليد الثوريّة الخالصة. كان الشّاهد إطارًا سياسيًّا عالي المرتبة، ورافقتنا مجموعة من الأصدقاء والزّملاء وهم يحملون أزهارًا ورقيّةً حمراء. أمّا بخصوص الاحتفاليّة فقد كان من حقّنا ثلاث علب من السّجائر من صنف «هنقدا» وحلوى

وغلال. ومن ثمّ استقررنا بحيّ الأزواج من موظّفي المستشفى. لم تكن ممتلكاتنا تتعدّى سريرَيْن صغيرَيْن من خشبٍ ولحافَيْن من ريش، وطاولة من خشب الورد، وشهادة لزواجنا مزيّنة بصورة الرّئيس «ماو». لكنّنا كنّا في غاية السّعادة. وبعد ثلاثة أسابيع فقط صارت الوثائق الخاصّة بانتداب «كجون» جاهزة، وأُرْسِلَتْ وحدتُه إلى التّيبت. كِدنا لا نصدّق الخبر قبل رحيله. ثمّ قامَ الجيشُ بما يلزم لأُنْقَلَ إلى أحد مستشفيات «سوزهو» حتّى أكون أقرب إلى والديّ وإلى أختي. فانغمستُ في العمل حتّى لا أشعر بمدى شوقي إلى «كجون».. وفي اللّيل حين ينام الجميع، أُخرِج صورته وأتأمّل وجهه الباسم. كنتُ أفكّر دائمًا في كلامه قُبَيْل الرّحيل حين قال: «إنّه يتلهّف للعودة في أقرب وقت ممكن، ليكون ابنًا بارًّا بأبويّ وأبًا صالحا لأبنائنا». وكنت أنتظر عودته بفارغ الصّبر... ولكنْ عوضًا عن رجوعه، تلقّيت دعوة من القيادة العامّة بـ «سوزهو» تعلمني فيها بأنّه مات.

في تلك اللّيلة، تقاسمنا أنا و«شو وين» غرفةً بالفندق الصّغير الملاصق لمحلّ الشّاي. وفي اليومين اللّذين أمْضَيْناهما معًا فتحتْ لي قلبها على نحو لم أكن لأجرؤ على الحلم به. وحين عدتُ إلى مكتبي في «نانكين» شرعتُ أراجع مذكّراتي، وأدركتُ أنّ هناك عدّة أمور مازلت أجهلها عن هذه المرأة الخارقة. كان جهلي يمنعني من أن ألقيَ عليها بعض الأسئلة، ولم أكن أجد حتّى الكلمات المناسبة لوصف الملابس الّتي كانت ترتديها. هاتفتُ الفندق في «سوزهو» حيث أقمْنَا، فوجدتُها قد غادرت. وفي اضطرابي، اتّصلت بالرّجل الذي

حدّثني عنها فقال:

- لا أدري أين هي... في ذلك اليوم، أرسلتْ إليّ علبةً من الشّاي الأخضر عن طريق بائع حساء الأرز. كانت تريد أن تشكرني لأنّي قدَّمْتُكِ إليها، وقالت إنّها ترجو أن تروي حكايتَها للنّاس، ولم أرَها منذ ذلك اليوم.

2
لا يمكنني تَرْكُهُ في التّيبت وحيدًا

إعلان وفاة

هذا الإعلان يشهد أنّ الرّفيق «وانغ كجون» توفي في حادثٍ وقع شرقيّ التّيبت يوم 24 مارس 1958، وهو في التّاسعة والعشرين من العمر.

المكتب العسكري بـ«سوزهو»
مقاطعة «جيتنقسو» 2 حزيران 1958

ظلّت «وين» شاخصةً على درجات السّلّم المؤدّي إلى مركز قيادة الجيش العامّة، وقد ابتلّ شعرها ووجهها بمطر دلتا «يانغتسي» الموسميّ.

«كجون».. مات؟ زوجها منذ ما يقلّ عن ثلاثة أشهر، مات؟ مازالت حلاوة الأيّام الأولى من زواجهما كامنةً في قلبها، مازالت تشعر بحرارتها. من تلك الأشهر الثّلاثة، لم يُمْضيا معًا إلاّ ثلاثة أسابيع. لم يكن ممكنًا أن يموت. كان قويًّا بالغَ القوّة، كثيرَ الحديث، مليئًا بالحياة غايةَ الامتلاء حينَ رحل إلى التّيبت. ولم يكن لأيّ طبيب عسكريّ أن يشارك مباشرةً في المجابهات، فعَنْ أيِّ «حادثٍ»

يتكلّمون؟ وفي أيِّ ظُروفٍ قضى نحبه؟ لماذا لم يقدّموا لها مزيدًا من الإيضاحات؟

لم تَكن تجدُ -في غمرة التّقارير الحماسيّة عن انتصارات جيش التّحرير الشّعبيّ عند دخوله التّيبت- أيَّ إشارةٍ إلى حادثٍ مّا قد يكون «كجون» ماتَ خلاله. ولم يتلقّ موظّف المكتب العسكريّ المكلّف برعاية أرامل الجنود القتلى في المعارك وأيتامهم -حسب ما قال لـ «وين»- أيَّ تقريرٍ من ساحة المعركة في التّيبت.

كانت حياة المدينة الصّاخبة تستمرّ حولها، لكنّ «وين» لم تكن تأبه لشيء. ومضَتْ ساعةٌ، ثمّ أخرى، وهي مفعمةٌ بالأسى والشّكوك.

أعادتها نواقيسُ معبد الجبل البارد إلى الواقع. وفي طريق عودتها من المستشفى، وحيدةً بأتمّ معنى الكلمة للمرّة الأولى في حياتها، عبرتْ ذهنَها فكرةٌ: ماذا لو كان «كجون» قد انفصل عن وحدته ككلّ أولئك الجنود الّذين يُعتقد أنّهم ماتوا، وهُمْ في الحقيقة قدْ سلكوا طريق العودة؟ هل يمكن أن يكون في خطر؟ أيكون مريضًا؟ ليس في وسعها أن تتركه وحيدًا هناك، وبدأت تستبدّ بها فكرةُ وجوب السفر إلى التّيبت للعثور على «كجون» حتّى قرّرت، رغم كلّ محاولات عائلتها وأصدقائها وزملائها لثَنْيِها عن عزمها، الالتحاق بكتيبة زوجها. فراجعت جميع المكاتب الحكوميّة التي صادفتها، مقدّمةً لكلّ أولئك الّذين نجحت في لقائهم، -وهي تذرف الدّمع-، شهادةَ زواجها، وإعلانَ الوفاة، وحتّى بعض أغراض زوجها الشّخصيّة كمنشفة استحمامه، ومنديله، وفنجان الشّاي الخاصّ به. وكانت

تؤكد قائلة: «لا بدّ أنّ زوجي على قيد الحياة».

في البداية حاول المسؤولون العسكريّون الّذين توجّهت إليهم ثَنْيَهَا عن الالتحاق بالجيش، ولكن حينما أدركوا أنّها طبيبة كفّوا عن الاعتراض. فقد كان الجيش في حاجة ملحّة إلى الأطبّاء، لأنّ جنودًا كثيرين هناك يعانون من تبعات الصّعود إلى جبال التّيبت، ثمّ إنّ شهادات اختصاصها في طبّ الجلد قد جعلت الحاجة إليها أكثر إلحاحًا، فكثير من الجنود مُصابون بحروق حادّة من فرط حرارة الشّمس في الجبال الشّاهقة. وهكذا تقرّر أن تسافر «وين» إلى التّيبت دون تأخير.

غادرت «وين» مدينة «سوزهو»، مرفوقةً بأختها الكبرى وأبويْها -وقد بلغا من الكِبَر عتيًّا- إلى محطّة الحافلات على مقربة من النّهر. لم ينبس أيٌّ منهم ببنت شفة، ولا أحدَ كان يدري ما يمكن أن يقول. وضعت أختها في كفّها حقيبة تُحمل على الكتف قُدّت من حرير «سوزهو» دون أن تذكر لها شيئًا بخصوص محتواها، ووضع والدها -وهو صامت- في حقيبتها العسكريّة كتابًا، ووضعت والدتها منديلاً مضمّخا بالدّموع في جيب الجاكتّة.

سلّمت «وين» لوالدتها، وعيناها مغرورقتان بالدّموع، شهادةَ زواجِها، ذلك أنّ الأمّ وحدها يمكن أن تحْفَظَ شيئًا نفيسًا كهذا. وسلّمت لوالدها فنجانَ شاي «كجون» ومنشفته، وهي تعلم كم كان والدها يحبّ صهره. ثمّ ناولت أختها وهي المؤتمنة على كلّ أسرارها رزمةً بها رسائلها، ووثائق هويّة زوجها ورسائل الحبّ المتبادلة بينهما.

كانت الغيوم السّوداء الكئيبة تختلط بدخان المدافئ المتصاعد من الدّور ذات الجدران البيضاء والقرميد الرّماديّ، لتلفّ أفراد عائلة «وين». ومن خلال النّوافذ المتداعية، كانت «وين» ترى أهلها يتضاءلون شيئًا فشيئًا ثمّ يختفون. ألقَتْ نظرةً أخيرةً على مدينة «سوزهو»، على الدّيار بجسورها الصّغيرة فوق الماء، على المعابد فوق الرّبى المشرفة على النّهر، والخضرة الكثيفة على دلتا نهر «يانتسي»... وحيثما ولّت وجهها رأت الرّايات الحمراء ترفرف في الهواء.

ولمّا فتحت الكيس الحريريّ الّذي منحته إيّاها شقيقتها، وجدت فيه خمس بيضات مسلوقة مازالت ساخنة وقطعتين من الحلوى بالجلجلان، وكيسًا من حبوب اليقطين، وكيسًا آخر به قطع من اللّفت الحامض-الحلو، وترمس شاي، ورسالةً صغيرةً خضّبتها العَبَرَات:

شقيقتي الصّغيرة العزيزة،

قلبي أثقل من أن تقدر الكلمات على التّعبير عمّا به. لم يَعُدْ والدَانا شَابَّيْنِ لِيَتَحَمَّلاَ مزيدًا من الأسى، لذا عودي إلينا سَرِيعًا، وحتّى إن فقدتِ «كجون» فنحن لك، ولا يمكننا أن نحيا من دونك.

ابقيْ على قيد الحياة واعتني بنفسك.

أنتظرك.

شقيقتك

أمّا الكتاب الذي أودعه والدها في حقيبتها فهو «المقالات التّامّة»

لـ «ليانغ شيكيو»[1]. وكانت تلك المقالات التي تحوّل أحداث الحياة اليَوميّة الصّغيرة إلى دُررٍ من الحكمة كتابَ أبيها المفضّل. وقد كَتَبَ في صفحة العنوان:

صغيرتي «وين»

تَمامًا كما تُقرأ الكُتُب كلمةً كلمة، تقطع الطّرُق خطوةً خطوة. عندما تنتهين من قراءة هذا الكتاب، اسلكا أنتِ و«كجون» طريق العودة إلى البيت.

والدتك ووالدك اللّذان ينتظران عودتكما.

طوتْ «وين» رسالة أختها على شكلِ مُثلّث ودسَّتْهَا مع صورة صغيرة لـ «كجون» في طيّات الكتاب لتعيين الصّفحة، ثم لفّت كلّ ذلك في منديلِ والدتِها. قيل لها إنّ الأغراض الشّخصيّة محظورة أثناء الحملات العسكريّة، ولكنّ هذه الأشياء الصّغيرة هي ذكرياتها الوحيدة.

انطلقت الحافلة، وهي تهتز سالكةً طريقَ الشّمال الموازية للقنال الكبير الرّابط بين «هانزهو» و«بيكين». وبينما كانت تتأمّل مياه القنال الهادئة، تذكّرتْ شيئًا من كلام أبيها في ما مضى، حين قال لها إنّ القنال القديم الّذي عمره أكثر من ألفين وأربعمائة عام، يربط بين «يانغتسي» والنّهرِ الأصفر وعدّةِ أوديةٍ صينيّة أخرى، وإنّ كلّ أنهار الصّين الكبرى تجري من الغرب إلى الشّرق، وتأخذ منابعها من التّيبت. كان

(1) كاتب ومترجم وناقد أدبي صيني (1902/ 1987) تعلّم في الولايات المتّحدة وألحّ على مسألة الجماليّات في الأدب الصّيني الحديث.

هذا أوّل صلة لها بـ «كجون».. هذا القنال البارد العميق الّذي تنزل مياهه من الكتل الجليديّة والجبال المتوّجة قممُها بالثّلج، هو الّذي أغرق زوجها. كانت الدّموع تسيل على وجه «وين»، فأخرجت المرأة المُحاذية لها منديلَ جيبٍ من قميصها ودسّته في يدها.

شقّت الحافلةُ، طيلة ستّة أيّام وستّ ليال، طريقًا نحو الشّمال الغربيّ ضمن حشدٍ مستمرّ من العربات والدّوابّ والبشر، وذلك قبل الوصول إلى «زهنقزهو»، المدينة الواقعة على ضفّة النّهر الأصفر وملتقى السّكك الحديديّة. تلقّت «وين» الأمرَ بالتقدّم إلى القاعدة العسكريّة لتواصلَ بعد ذلك طريقها بالقطار حتّى «شنقدو»، قبل الانخراط في الطّريق الكبيرة الرّابطة بين «سيشوان» والتّيبت. وقد بلغها أنّ وحدة «كجون» هي أيضًا دخلتْ التّيبت عبرَ هذا المسلك الوعر.

في محطّة الحافلات، وجدتْ «وين» في انتظارها، جنديًّا من القاعدة العسكريّة. استقبلها بحفاوةٍ، وصحبها إلى مقرّ القيادة. كان كلّ شيء مُعدًّا بدقّة، وإن كانت الأسرّة المجهّزة لستّة أشخاص لا تعدو أن تكون ألواحًا خشبيّةً موضوعةً على قطعٍ من جذوع الأشجار، وملاءات، وحشايا، ومساند، كانت تبدو نظيفة. ومقارنة بالشّارع قبالة النّافذة، وبما يحتويه من دوّامات الغبار وأكوام القمامة، فإنّ ذلك المكان، حيث تقطن «وين»، يبدو كالجنّة. قال لها الجنديّ الّذي أُرْسِلَ لاستقبالها إنّه نادرًا ما رأى نساءً مجنّدات وإنّ جلّ النّساء المقيمات في القاعدة قد أَتَيْنَ بحثًا عن أزواجهنّ.

تمكّنتْ «وين» -وهي مستترة خلف حجابٍ من القشّ- من أن تستحمّ لتسترجع حيويّتها. ثمّ ارتدت البذلة العسكريّة الّتي وجدَتْها في انتظارها، وبينما كانت تصفّف شعرها أمام أشعّةٍ ضئيلةٍ منبعثة من مرآة صغيرة معلّقة في السّتار، تعجّبتْ من حسن التّنظيم الظّاهر في الجيش. فإذا كان الجيش قادرًا على هزم زعيم القوميّين «شيانكاي شاك»(1) فلا بدّ إذن أن يكون قادرًا على تزويدها بمعلومات عن «كجون».

كانت المرآة صغيرةً جدًّا حتّى إنّها لم تمكّنها من رؤية صورتها، وهي في البذلة العسكريّة الجديدة، فهل سيعرفها «كجون»؟ ثمّ استغرقها التّعب المتراكم طيلة ستّة أيّام من المسير. ورغم أنّ السّاعة لم تتجاوز الخامسة مساءً، فقد ارتمت على الفراش ونامت على الفور.

هزّها صوتُ البوقِ من نومٍ عميقٍ، ولعلّه البوق الوحيد الذي أُتيح لـ«وين» سماعه طيلة حياتها، حتّى إنّها لم تتذكّر ما إذا كانت قد حلمت أم لا. وجدت إلى جانبها خَمْسَ نساء ممدّدات نائمات، ولم يكنّ يرتدين الزّيّ العسكريّ. لعلّهنّ من العاملات في الإدارة. وحين جلست «وين» تدحرج جسمٌ في الفضاء الّذي تركته... لم ينزعج أحدٌ سواها من صوت النّفير رغم أنّه دوّى لفترة طويلة، لا بدّ أنّ هؤلاء النّسوة كنّ أكثر إرهاقًا منها.

نزلت «وين» من السّرير المشترك لتكتشفَ أنّ البذلة العسكريّة الجديدة الّتي ترتديها لم تكن سوى كتلةٍ من القماش المغضّن المجعّد،

---

(1) شيانكاي شاك: زعيم سياسّي وقائد عسكريّ صينيّ (1887/ 1975) قاوم الشّيوعيّة النّاشئة في بلده.

ولو رآها «كجون» على تلك الهيئة لضَرَب أنفها ضربةً خفيفة، وهي العقوبة الّتي كان يُنزلها بها حين تعجز عن الإجابة على سؤال من أسئلته. ولطالما أحبّت «وين» تلك العقوبة، فأقلّ ملامسة من يده تملأ جسدَها حرارةً، لذلك غالبًا ما كانت تختلق إجابات خاطئة.

- هل نمتِ جيّدًا؟

على العتبة كان هناك رجلٌ يبتسم، قاطعًا حبلَ أفكارها. خمّنت «وين» في الحال، أمام قامته الفارعة ولهجته القويّة الآمرة أنّه ضابط.

- «لقد.. نمتُ جيّدًا... شكرًا»، ردّت مضطربة.

قدم الرّجل نفسه: اسمي «وانغ لينغ»، ودعاها إلى تناول الفطور، وهو يقول:

- أستمعُ إلى عصافير بطنك تحتج... لم نشأ إيقاظك للعشاء، ففي زمن الحرب، النومة الهادئة أمرٌ بالغ القيمة.

أحسّت وين على الفور بنوعٍ لطيفٍ من المودّة تجاه «وانغ لينغ». تناولت أوّلَ فطورٍ لها على طريقة الشّمال: قدح من «الهولاتنغ»، وهو حساءٌ كثيفٌ من دقيق القمح مع قِطَعٍ خشنة من الخضار، وقِطَعٍ من لحم الخنزير، وكثيرٍ من الفلفل. وهناك أيضًا قطعة من المصبّرات المالحة مصنوعة من أوراق الخردل تسمّى «جيدا». وقد كان يُفترض أن تكون هذه المذاقات ذات التّوابل الكثيرة والقويّة دواءً مُرًّا بالنّسبة إلى فتاة من الجنوب متعوّدة على غذاء أكثر لينًا، لكنْ يبدو أنّ معدة «وين» قد عرفت الانضباط والطّاعة تحت تأثير بذلتها العسكريّة وتحت تأثير جوعها، وفي دقائق قليلة ابتلعت كلّ ما قُدِّمَ لها.

بعد تناول الفطور، ذهبت «وين» مع «وانغ لينغ» إلى مكتبه. كانت صور «ماو زيدونغ»[1] و«زهو دي»[2] باللّباس العسكريّ تبعث في الغرفة إحساسًا بالهيبة والرّهبة.

كانت الوصايا الثّلاث الكبرى ومبادئ الجيش الشّعبيّ الثّمانية مرسومةً على الجدار بخطٍّ أحْمَرَ قانٍ. وكانت «وين» قد أَلِفَتْ هذه الشّعارات: «أطِعْ جميعَ الأوامر»، «لا تأخذ شيئًا من الشّعب ولو كان إبرةً أو قطعةً من خيط»، «لا تدمّر المحاصيل الزّراعية»، «لا تُسِئْ معاملةَ المساجين»...

بدا «وانغ لينغ» -وهو جالسٌ إلى مكتبه تحت صُوَر زُعماء عظماء- أكثرَ جديّةً ومهابة، حاول بمنتهى الصرامة أن يقنعها بأن تعدل عن رأيها، وألاّ تسافر بحثا عن «كجون». نصحها بأن تضع مشاعرها تجاه زوجها جانِبًا وأن تفكّر في المصاعب والمخاطر التي عليها مجابهتها أثناء سفرها إلى التّيبت: فهي لا تعرف لغة البلاد، ويمكن بسهولة أن تضِلّ عن وحدتها، ثمّ إنّ الظّروف المناخية تجعل النّاس مَرْضَى، هذا فضلاً عن أنّ الوضع هناك غامض، والخسائر مرتفعة، وبصفتها امرأة لم تتلقّ تمرينًا فإنّ حظوظها في النّجاة ولو لشهر واحد، ضئيلةٌ جدًّا.

نظرت «وين» في عَيْنَيْ «وانغ لينغ» مباشرة:

- لَّما تزوّجت «كجون»، أهديتُه حياتي.

---

(1) هو ماو تسي تونغ (1893/ 1976) كما شاع نطق اسمه.

(2) زهو دي (1886/ 1976) قائد عسكريّ وسياسّي صينيّ، وهو أحد مؤسّسي الجيش الأحمر الصّينيّ الّذي حلّ محلّ جيش التّحرير الشّعبيّ.

عضّ « وانغ لينغ» على شفته السّفلى:
- أنتِ عنيدة جدًّا. هناك قطار عسكريّ يسافر في اتّجاه « شنغدو» غدًا. يمكنك أن تستقلّيه.

ومدّها بكُتيِّب فيه معلومات عسكريّة عن التّيبت وعادات سكّانه، فتناولته شاكرة:
- شكرًا، سأدرس هذا أثناء السّفر، وسأسعى إلى التأقلم مع ظروف الحياة في البلد.

قال «وانغ لينغ» بلهجةٍ كئيبة وهو يقف ويقترب منها:
- إنّ الحرب لا تترك لك متعة الدّراسة ولا أيَّ فرصةٍ للتّأقلم. الحرب ترسم حدودًا واضحة بين الحبّ والكراهية. ولم أفهم قطّ كيف يتمكّن الأطبّاء من أن يختاروا بين واجبهم المهنيّ والأوامر العسكريّة. ومهما يكن من أمر، تذكّري شيئًا واحدًا: إنّ مجرّد البقاء على قيد الحياة هو في حدّ ذاته انتصار.

كان «وانغ لينغ» يحاول أن يرعبها. هزّت رأسها لتثبت له أنّها تحترمه، لكن دون أن تدرك ما يريد. ثمّ سلّمته كيس شقيقتها الحريريّ، وقد كتبت داخله اسم «كجون»، وأسماء والديها وشقيقتها واسمها هي. وقالت لـ «وانغ لينغ» إنّها ترجو أن يجتمع يومًا في «سوزهو» كلّ هؤلاء الّذين ذَكَرَت أسماءَهم. ومقابل ذلك، أعطاها «وانغ لينغ» قلمًا ودفترًا وهو يقول:
- ربّما تكون الكتابةُ منبعَ قوّة.

أمضت «وين» برفقة «وانغ لينغ» نحو ساعة، غير أنّها ستظلّ تذكر كلماته طيلة حياتها.

تبيّن أنّ قطار النّقل العسكريّ لا يعدو أن يكون قطار بضائع: كانت كلُّ عرَبةٍ تحمل مائة نفر، متراصّين تراصًّا لا يُصدّق. ولم تكن النّوافذ الزّجاجية الصّغيرة ذات مقاس العشرين سنتمترًا على عشرين، تسمح إلاّ بنفاذ مقدارٍ ضئيلٍ من الضّوء. أمّا «وين» والمسافرة الأخرى الوحيدة -وهي ممرّضة- فلم تجدا بُدًّا من أن تنحشرا مع الرّجال. وبعد كلّ أربع ساعات تقريبًا، كان القطار يتوقّف لمدّة خمس دقائق في مكانٍ قفرٍ ليسمح للمسافرين بإفراغ مثاناتهم وإراحة سيقانهم بعض الشيء. وفي اللّيل، كان القطار يتوقّف أحيانًا قُرْبَ محطّة تزويد عسكريّة، ليُمْنَحَ المسافرون وجبة طعام، وما عدا ذلك يُسْكِتُ الجنودُ جوعَهم أثناء النّهار بأكل البسكويت والفطائر المسلوقة بالبخار.

في البداية، كان بعض الجنود يتحمّسون لرؤية المشاهد الطّبيعيّة الّتي تتبدّى من خلال النّوافذ الصّغيرة، لكنّ نقص الأكسيجين والحرارة الخانقة داخل العربات المغلقة قد بدّدا فيهم كلّ طاقة. وفي غضون بضع ساعات كفّوا عن الحديث.

استغرقت «وين» في قراءة الكتيّب الّذي أعطاه إيّاها «وانغ لينغ». كان يتحدّث عن القبائل الرُّحّل وعن منزلة الدّين في الثقافة التّيبتيّة.

استغرقت الرحلة يومين وليلتين كان القطار يدغدغ خلالها المسافرين في صمت. وفي صباحٍ باكرٍ، وصل المسافرون إلى مدينة

«شنغدو» الكبيرة. تنفّستْ « وين» الصعداء، لأنّها هنا ستلتحق، في آخر مراحل سفرها، بالطريقِ الّتي أنشئت حديثًا لتربط بين الصّين والتّيبت. كانت تتلهّف لرؤية هذه الطّريق، وتذكّرت مقالات صحفيّة نُشِرَت بمناسبة افتتاحها سنة 1954، لتشيد بمهارات مُنْجزيها التّقنيّة الخارقة. كانت أطولَ طريق في الصّين، والأولى الّتي يليق بها اسم «طريق» في التّيبت، وهي تربط بين «شنغدو» و«لاسّا» ويبلغ طولها 2500 كيلومتر تقريبًا. أمّا السّنوات الأربع التي استغرقها بناؤها فإنّها لا تُعَدُّ شيئًا ذا بال إذا اعتبرنا عدد الجبال الّتي تشقّها، وهي أربعة عشر جبلاً في الجملة، وكذلك الأودية الّتي لا تقلّ عن عشرة. أمّا الزوابع الثّلجية والرّياح الجليديّة الّتي كان على العمّال أن يواجهوها، فقد جعلتْ عملَهم بطولةً أسطوريّة.

كان الخريف يقترب بخطى حثيثة. لكن مدينة «شنغدو» ما تزال متدثّرة بحرارة الصّيف الرّطبة والخانقة. وحين نزولها من القطار، مسحت «وين» جبينها بكُمّ جمّازتها العسكريّة المبتلّة بالعرق. وخمّنت في خجلٍ أنّ وجهها لا بدّ أن يكون متّسخًا على نحو بائس. ازدحم الرّصيف بعددٍ كبيرٍ من الجنود. لكنّ المحطّة كانت صامتةً صمتًا غريبًا. لقد أرهق نقص الأكسجين الجميع. تأمّلت «وين» المعلّقات العسكريّة المصفّفة على طول الرّصيف باحثةً عن الرّقم الخاصّ بوَحْدتها. وانتهت إلى رُؤيةِ لافتةٍ تحمل الرقم 560809 يمسكها جنديٌّ يبدو صغيرَ السّنّ بشكلٍ مُدهش، فأخرجت من أحد جيوبها الدّاخلية وثائقها العسكريّة الرّطبة وقدّمتها للشابّ.

كانت «وين» تتصوّر أنّ بإمكانها، ما إنْ تصل إلى «شنغدو»،

الانطلاق فورًا في البحث عن «كجون». لكنّها حين التحقت بالوَحْدَة القديمة حيث عمل زوجُها اكتشفت أنّ الرّقم 560809 وحده قد بقي على حاله وأنّ الوحدة بأسرها قد أُعِيدَ تشكيلها من الضّبّاط إلى الجنود البسطاء، ولا أحد يدري على وجه الدّقّة في أيّ مكانٍ بالتّيبت قاتلَتْ الوَحْدة السّابقة، بل، ولا أحد كان يعرف موضع كتيبة «كجون».

قال لها ضابطٌ من القيادة العليا إنّ الجنودَ، بناء على مجال الانتشارات السّابقة، ينبغي أن يكونوا على مقربة من جبال «بيان خار» في المنطقة الشّمالية الشّرقية الصّحراوية من «كينغهاي». بيد أنّ المعلومات شحيحة لأنّ النّاجين كانوا قلّة، ومن بقي منهم على قيد الحياة قد نُقِلَ إلى منطقة أخرى. دوّنت «وين» داخل غلاف كتابها «المقالات الكاملة» لـ «ليانغ شيكيو» هذه العبارة: «جبال بيان خار»، لعلّها تعثر على بيانات أوسع تخصّ «كجون» خلال رحلتها، لكنّ قلبها تداعى عند التّفكير في عدد النّاجين الضّئيل.

تقرّرت فترةُ استراحةٍ بيومين لإعادة التّنظيم والتّحضيرات قبل الانطلاق إلى التّيبت. ودُرِّبَت «وين» وطبيبان آخران على كيفية معالجة بعض المشاكل منها مساوئ الصّعود إلى الجبال. وأعطِي لكلّ طبيب عبوة أكسيجين محمولة وعدد من قوارير الغِيار. قالت «وين» في نفسها: «الله وحده يعلم كيف سأتدبّر أمري لأحمل كلّ هذا، إذا ما أُصبتُ أنا نفسي بدوار الجبال». كان أغلبُ الحاضرين قد عاشوا من قبل هذه التّجربة في شكلِ صداعٍ خفيفٍ وضيقٍ في التّنفّس، ولكن كلّما توغّلوا في البلاد، ازداد الأمرُ سُوءًا، ذلك أنّ معدّل الارتفاع عند سقف العالم هو أربعة آلاف متر.

صعدت «وين» ورفاق السّلاح في العربات العسكريّة للانطلاق في الطّريق الكبيرة الذّائعة الصّيت الرّابطة بين «سيشون» والتّيبت، يحملون على ظهورهم أمتعتَهُم الشّاحبة ملفوفةً في ملاءاتٍ مربوطة بسلك، وفي اللّيل ليس عليهم إلّا أن يبسطوا ملاءاتهم ليناموا على الأرض.

كانت القافلة عظيمة: عدّة عشرات من الشّاحنات تحمل ألف رجل. وكانت «وين» مُنبهرةً بعددِ الجنود وبجَمال الطّريق في الآن نفسه. بدت الطّريق أكثر مهابةً ممّا تخيّلَتْ، وهي تقطع بمنعرجاتها وانعطفاتها اللاّمتناهية عددًا لا يُحصى من الجبال.. وكان الطقس يتغيّر بلا هوادة، فهو في لحظة كيوم دافئ من أيّام الرّبيع المزهرة، وفي اللّحظة الّتي تليها، تتطاير حول الرّكْبِ نُتَفٌ من الثّلج. وكانت «وين» تشعر بأنّها في بلدٍ خُرافيّ حيث تتعاقب في اليوم نفسه آلافُ السّنين.

كان أغلب جنود الشّاحنات العسكريّة في العشرين من العمر. يقهقهون في صخَبٍ، ويتدافعون وهم يتحدّثون عن القليل ممّا يعرفون عن التّيبت: عن زعمائه الروحانيين من اللّاما، وعن النّسّاك، والرُّحَّل، وفظاعة الشّعب الخرافيّة. أدركت «وين» أنّهم رغم صخَبِهم كانوا قلقين، فهم لا يعرفون شيئًا عن الصّراع الّذي سيشاركون فيه، والشّائعات عن الفظاعات الوحشيّة التي يبتكرها التّيبيتيون لمعاقبة أعدائهم تتوالى عليهم كُلَّ يوم.

كانت غالبيّة هؤلاء الجنود الشّباب مزارعينَ أمّيّين، عاجزينَ تمامًا عن فهم شعبٍ شديدِ الاختلاف عنهم وبعيدٍ كلَّ البُعد عن

تقاليدهم. فكّرتْ «وين» في الشّغف الّذي كان «كجون» يدرس به التّقاليد، وفي إرادته امتلاكَ اللّغة. انكمشت في ركنٍ من الشّاحنة وركّزت على هدفها: العثور على «كجون». كانت أفكارُها تصنع لها قوقعةً وتعزلها عن الآخرين، فلا تكاد تعي ثرثرة الجنود ولا مشقّة السّفر البالغة، ولا تلك اللّيالي الجليديّة، ولا المشاهد الطّبيعيّة الخارقة. ولم تستفق من حلمها، حلم اليقظة إلاّ لحظة غادرت الشّاحناتُ الطّريق الكبيرة لتعبر سهلاً يبدو ممتدًّا من جميع الجهات إلى اللاّمتناهي، ولا أثر فيه لِسَاكِن.

كان الرّكب يعمد إلى أوقاتٍ وقوفٍ واستراحة. أخذ عددُ حالاتِ ضيقِ التنفّس من الصّعود إلى الجبال يتفاقم. ولم يكن هناك سوى ثلاثة أطبّاء في قافلة بها أكثر من ألفِ جنديٍّ. فتحتّم على «وين» أن تركض في كلّ الاتّجاهات بأسطوانة الأكسجين المحمولة على الظّهر، لتشرح للجنود كيفيّة التّنفّس، ولتقدّم أنبوبَ الأكسجين لأولئك الّذين كانوا على وشك أن يفقدوا وعيهم.

وفي الوقت الذي بدأ فيه الجنود يتعوّدون على المناخ أدركت «وين» أنّ هناك أمرًا ما بصدد الحدوث. كان السّير يتباطأ، وسمع الجنود طلقات نار تأتي من بعيد. كانوا يعتقدون، من حين إلى آخر، أنّهم يروْنَ أشباحًا خلف الصّخور وفي الأحراش. وفي الأيّام الموالية دفعت وعورة الأرض القافلة إلى التفرّق، ووُجدت الشّاحنة التي تستقلّها «وين» ضمن مجموعةٍ من سَبع عربات لا غير. لطالما قيل عن المنطقة الّتي يقطعونها الآن إنّها «محرّرة» من طرف جيش التّحرير الشّعبيّ، لكنّهم لم يلمحوا بها سُكّانًا ولا عساكر، ولم تكن تصل منها

إلى رجال الاتّصال أيُّ إشارة. بدأ القلق يأخذ من الجنود كلَّ مأخذٍ بمقدار ما كان الدّوار وندرة الهواء وتغيّرات الحرارة المفاجئة تغرقهم في عالم من المخاوف.

أثناء النّهار، كانوا يستمدّون بعض الرّاحة من المناظر الطّبيعيّة الخلّابة وممّا يرون من الكائنات، من طير وثدييّات. ولكن أثناء اللّيل، مع هبوط الحرارة المفاجئ، وأصوات الحيوانات، وأنين العواصف بين الأشجار، كانت «وين» ورفاقها يشعرون بأنهم أسرى في عالم غير واقعيّ. كانوا ينتظرون بين لحظة وأخرى أن يختطف الموت أحدهم. يتلاصقون حول نار المخيّم، يحاولون النّوم لكن دون جدوى. ظلت «وين» صاحية تصغي إلى الرّيح، وقد خيّل إليها أنّها تسمع صوت «كجون».

وذات صباح، بينما كانت سريّةُ الجيش تستيقظ فجرًا، اكتُشِفت جثّتا جنديّين متيبّستين، وقد غُرس في صدر كل منهما خنجر تيبيتيّ برّاق. لم يكن القائمون على الحراسة قد سمعوا أيَّ حركةٍ طيلة اللّيل. لقد أُطلقت الخناجر من بعيد بدقّةٍ مريبة. وفي الغد واليوم الّذي تلاه، حدث الأمر نفسه، ولم يكن يجدي عددُ الحرّاس ولا عددُ النّيران التي أشعلوها، وظلّت تستقبل الجنودَ المنهكينَ جثّتان مطعونتان كُلَّ فجر. فلم يعد الشّكّ ممكنًا: إنّهم مُستهدَفون.

كان من ضمن القتلى سائقان. ولمّا لم يكن أحد سواهما يحسن السّياقة، اضطرّوا إلى التخلّي عن شاحنتيْن وإلى التّراصّ في العربات المتبقّية. خيّم صمتُ الموت على الرّكب، وظَلَّ كلٌّ منهم يفكّر في أنّ هذه النّهاية العنيفة كان يمكن أن تكون نهايته.

لم تكن «وين» تخشى الموت، فقد كانت تشعر بأنّها تقترب من «كجون». وإذا كان «كجون» ما يزال في النّاحية المقابلة فإنّها تريد الالتحاق به ما إن يضحي ذلك ممكنًا، أيًّا كانت منطقة الجحيم الّتي يتعذّب فيها. وفي عشيّة أحد الأيّام، رصد أحد الجنود من الشّاحنة شيئًا يتحرّك من بعيد فصاح:

- أُنظروا... هناك شيء يتحرّك.

كان في الاتّجاه الذي أشار إليه الجنديّ شيءٌ يتدحرج على الأرض. رأت «وين» جنديّا على وشك إطلاق النّار عليه، لكنّها منعته.

- لو كان يمثّل خطرًا لهاجَمنا أو فرّ، قالت لتبرّر موقفها.

سمعها قائد السّرّيّة الّذي كان في شاحنة «وين»، فأمر السّائق بالتّوقّف، وأرسل بعض الجنود للاستطلاع، فعادوا وهم يحملون ذلك الشّيء: كان تبيتيًّا غارقًا في قذارةٍ لا يمكنُ تخيُّلها، غيرَ مُحدَّد الجنس، وقد تحلّى بعقود ومجوهرات لمّاعة رنّانة.

3

زهوما

نظّفت «وين» القذارة بلطف، وكشفت عن وجهٍ ذي بشرة ساخنة بلون الفخّار وخدّيْن مُوَرّديْن ألهبتهما الشّمس. كان وجهًا أنموذجيًّا من التّيبت: له عينان قاتمتان معبّرتان، لوزيّتا الشكل، وثغر شهوانيّ، الشّفة السّفلى سميكة أمّا العليا فرقيقة، وأنف عريض مستقيم. لكنّ هذه الملامح الشّابّة كانت تحمل علاماتِ خطوبٍ رهيبةٍ أو مرض: عيناها مختنقتان بالدّم، ولم تكن المرأة بثغرها المقرّح الجريح قادرةً على التلفّظ بأصواتٍ مبهمة إلّا بصعوبة، ومن المستحيل أن تكون على علاقة بحوادث القتل في اللّيالي السّابقة، فقد كانت مشرفة على الموت.

قدّم جندي لـ «وين» قنّينة ماء، سكبت منها محتواها قطرةً فقطرةً في فم المرأة، ولمّا سكن عطشُها همست باللّغة الصّينيّة:

- شكرًا.

صاح جنديٌّ مخاطبًا جمهرة المشاهدين:

- إنّها تتكلّم الصّينيّة.

شعر الجميع بالإثارة: إنّها أوّل شخص من التّيبت يشاهدونه، وإضافةً إلى هذا هي تتحدّث اللّغة الصّينيّة. وفي الحين تساءلوا ما إذا

كان بإمكانها أن تنبّههم إلى هجمات لاحقة، لعلّها تستطيع حمايتهم. لاحظت «وين» آمر السّرّيّة ينظر في اتّجاهها وهو يحاور ضبّاط الشّاحنات الأخرى، وتوقّعت أنّهم يناقشون مصير المرأة التّيبيتيّة. ثم تقدّم الآمر نحو «وين»:

- ممّ تشكو؟ هل يمكن أن تكون نافعةً لنا؟

أدركت «وين» أنّ حياة هذه المرأة بين يديها.

وبعد أن جسّت نبضها وتسمّعت دقّات قلبها التفتتْ إلى القائد وقالت:

- أعتقد أنّها تشكو من الإرهاق... وستتعافى سريعًا.

كان الأمر كذلك تمامًا، لكنّ «وين» تعلم أنّه كان عليها أن تقول الشّيء ذاته حتّى لو لم يكن الأمر كذلك. لم تكن تريد أن تتخلّى عن هذه التّيبيتيّة.

- احملوها إلى الشّاحنة ولْننطلقْ.

صعد القائد إلى مقعده دون أن يضيف قولاً آخر.

وما إن استأنفوا الطّريق حتّى وقعت المرأة في سُباتٍ عميق. أوضحت «وين» للجنود بأنّها ظلّت على الأرجح بلا طعامٍ ولا شراب لعدّة أيّام وليال. لاحظت أنّ الجنود لا يصدّقونها تصديقًا كاملاً، ولكنّ الجميع تراصّوا ليفسحوا أوسع ما يمكن من مكان للتّيبتيّة.

كانت «وين» تنظر مبهورةً إلى العقود والتّعاويذ على صدر المرأة،

ترتفع وتنخفض على إيقاع تنفسّها المُجهَد، وكان فستانُها الثّقيل على خشونته وغُباره وقذارته يحمل مواضع من تطريز لطيف. إنّها ليست من المزارعين. ثم تبسّمت «وين» ضاحكةً في سرّها حين رأت كلّ من في الشّاحنة من الجنود -وكان بعضهم مذهولاً- لا يقدرون على تحويل أبصارهم عن هذه المخلوقة الغريبة.

كان اليوم بلا نهاية، والطّريق تزداد سُوءًا شيئًا فشيئًا، في حين ظلّوا يتقدّمون ببطء في عديد المواطن الخطيرة. كانت الرّيح تعصف بشدّة حتّى لترجّ الشّاحنات من جانب إلى آخر. وانتهوا إلى نصب المخيّم للمبيت في حماية إحدى الصّخور البارزة. اقترح القائد أن تكون المرأة قريبةً من أحد المواقد، ليحمل لها الدّفء الّذي تحتاج إليه أوّلاً، ولكن أيضًا، وهو الأمر الأهمّ، لردع القتلة، فمن المُحْتَمل أن يكونوا في إثرهم. وباتوا ليلتهم في أسْوَإ حال.

عند منتصف اللّيل، سمعت «وين» المرأةَ التّيبيتيّة تتأوّه فانحنت، وسألتها:

- ما بك؟ هل تحتاجين إلى شيء ما؟

- شربة ماء... شربة ماء.

وبدت وكأنها على وشك الإغماء.

جلبت «وين» إليها الماء بأسرع ما يمكن، ثم ناولتها نصيبًا وافرًا من الطّحين أخذته من الزّاد. وعادت المرأة إلى الحياة شيئًا فشيئًا، وصار بإمكانها أن تتحدّث.

- شكرًا لكم...أنتم طيّبون.

كانت تتكلم الصّينيّة بوضوح، ولكن بلكنة غريبة.

قالت «وين» وهي تبحث عن كلمة «طبيب» باللغة التّيبيتيّة التي علّمها إيّاها «كجون» من قبل:

- أنا مِنْبا... سأعتني بك. لا تتكلّمي. انتظري أن تتحسّن حالتك، فأنت مازلت شديدة المرض.

- أنا لست في حالة خطيرة، أنا مرهقة لا غير، وأريد أن أتحدّث.

حاولت المرأة بصعوبة أن تقرّب جسدها المستنزف الضّعيف من جسد «وين»:

- لا، لا تتحرّكي. أسمعك. ما اسمك؟

- «زهوما»، أجابت المرأة بصوت واهٍ.

- وأين تسكنين؟

- لا مقرّ لي...هُدّم بيتي.

امتلأت عيناها بالدّموع، أسقط في يدي «وين». وبعد صمت قصير، سألتها:

- أنّى لك أن تتحدّثي الصّينيّة بهذه الطلاقة؟

- تعلّمتُ الصّينيّة عندما كنت طفلة، فقد زرت بيكين وشنغهاي.

استغربت «وين» الأمر، وقالت بتأثّر وهي تتمنّى بكلّ قواها لو أنّ هذه المرأة تعرف مدينتها:

- أنا من سوزهو.

تغيّر وجه المرأة فجأةً وقالت بحدّة:

- ولماذا تَرَكْتُمْ مدينتكُم وجِئتُم لقَتْلِ التّيبتيّين؟

كانت «وين» توشك على أن تردّ حين أطلقت المرأة صرخةً بِلُغة التّيبت. هبّ الرّجال واقفين وقد كانوا في غاية التّوتّر. لكن كان ذلك متأخّرًا جدًّا، فقد سقط جنديٌّ آخر مطعونًا في القلب بخنجر تيبيتيّ. سُمِعت طلقات نارية وصرخاتٌ وكأنّ نوبةَ جنونٍ انتابت كلّ الجنود. ثمّ ساد هدوءٌ رهيبٌ كما لو أنّ مصيرًا بشعًا يهدّد أوّل مَن يُحدث أدنى صوت.

وفي قلب الصّمت استدار جنديٌّ وصوّب بندقيّته إلى «زهوما» التي كانت أضْعفَ من أن تنتصب واقفةً، وصرخ:

- سأقتلك أيتها التّيبيتيّة... سأقتلك.

وتظاهر بتشغيل سلاحه.

ارتمت «وين» -بشجاعة لم تكن تدرك أنّها تمتلكها- بين «زهوما» والجنديّ:

- لا ...انتظر!. هي لم تقتل أحدًا، ولا يمكنكم قتْلُها.

كان صوتُها مرتعشًا، غير أنّه كان مليئًا بالحزم.

- لكنّ شَعْبها هو الّذي يقتلنا... لا أريد أن أموت.

بدا الجندي على وشك الانفجار من الرّعب والغضب. وبدأ عددٌ من الجنود ينضمّون إلى الخصومة مؤيّدين حاملَ البندقيّة:

- اقتلها! اقتلها!

نظرت «وين» إلى القائد آملةً أن يأتيَ لنجدتها، لكنّ وجهه ظلّ جامدًا.

قالت «زهوما»:

- أيّتها «المنبا» الطيّبة اتركيهم يقتلوني، فهناك أحقاد كثيرة بين الصّينيّين والتّيبتيّين ولن يقدر أحدٌ على تسوية الأمر الآن. إن كان قتلي يوفّر لهم بعض السّلام، فأنا سعيدة بأن أموت هنا.

استدارت «وين» لتجابه الحشد:

- أسمعتم؟ إنّ هذه المرأة مستعدّة للتّضحية بحياتها من أجلكم. إنّها تيبيتيّة، ولكنّها تحبّنا، وتحبّ ثقافتنا، وقد زارت بيكين وشنغهاي. وهي تتحدّث الصّينيّة، وتريد مساعدتنا. لماذا نسلبها حياتها لمجرّد أنّنا سنشعر بشيء من الرّاحة؟ ما رأيكم في شعب يقتل من تحبّون من أجل الانتقام؟ ماذا بإمكانكم أن تفعلوا؟

كانت «وين» توشك على البكاء.

- التّيبتيّون يقتلوننا من أجل الانتقام، غمغم أحد الجنود.

- لهم أسبابهم الّتي تجعلهم يحقدون علينا، ونحن أيضًا لنا أسبابنا، ولكن لمَ نعقّد الوضع ونخلق أحقادًا جديدة؟

- ماذا تعرف النّساء عن الأعداء أو عن الكراهية؟ صاح صوتٌ من وسط الحشد، اقتلوا التّيبتيّة.

استدارت «وين» تواجه الصّوت:

- من قال إنّني لا أعرف شيئًا عن أعدائنا أو عن الكراهية؟ هل تعرفون لماذا تركتُ «سوزهو» وقطعتُ آلاف الكيلومترات

للقدوم إلى هذا المكان الكئيب؟ لقد جئت باحثةً عن زوجي. لم تمض على زواجنا إلاّ ثلاثة أسابيع عندما ذهب إلى الحرب في التّيبت، وقيل إنّه اختفى. حياتي لا معنى لها من دونه.

وانفجرت «وين» باكية.

سكت الجنود. ولم يكن يرافق نحيب «وين» سوى صوت النّار. ثمّ بدأ الصّبح يتنفّس وأضاء المخيّمَ شيء من النّور.
– أنا أدرك ما الحقد، فإن كان زوجي قد مات حقًّا، وهو في سنّ التّاسعة والعشرين، فأنا هنا لأثأر له، ولأعثر على قاتليه. ولكن ألا تعتقدون أنّ النّاس هنا يكرهوننا أيضًا؟ ألم تتساءلوا يومًا لماذا لم نصادف أحدًا؟ ألا تعتقدون أنّ في الأمر شيئًا يتعلّق بنا نحن؟

ألقَتْ «وين» نظرةً على مستمعيها وقد لزموا الصّمت، وواصلت في بطء أكثر وبعزم أشدّ:
– كلّ هؤلاء الّذين قُتِلُوا في المدّة الأخيرة هم إنذار لنا. لقد فكّرتُ في الأمر كثيرًا. لماذا نحن هنا؟ هل دعانا التّيبتيّون للقدوم؟ نحن جئنا لنحرّرهم، فلماذا يكرهوننا؟

قاطع القائد كلامَ «وين»:
– أيّتها السّرّية.... اصطفاف!

وبينما كان الجنود يسارعون ليصطفّوا، همس القائد لـ «وين»:
– أفهمُ ما تقولين، ولكنْ لا يمكنك أن تتحدّثي إلى الجنود على هذا النّحو. نحن جيش ثوريّ، ولسنا قوّةً قمعيّةً. التحقي

بالصّفوف وانتظري أوامري.

واستدار القائد نحو الجنود:

- أيّها الرّفاق! نحن في وضعيّةٍ خطيرةٍ وشديدةِ التّعقيد. وعلينا أن نتذكّر القواعد الثّلاث الكبرى ومبادئ الجيش الثّمانية، وسياسة الحزب الّتي تخصّ الأقلّيّات. نحن نغفر للشّعب التّيبيتيّ خلافه معنا، ونحن نبحث عن تعاونه، ونعمل ما أمكن على تحرير التّيبيت.

ألقى القائد نظرةً على «زهوما» و«وين»:

- إذا كنّا نريد تحرير التّيبت، فإنّنا نحتاج إلى تعاون الشّعب التّيبتيّ، وخاصّة أولئك الّذين يتحدّثون الصّينيّة: يمكنهم مساعدتنا بتحذيرنا من الخطر، وضمّ أبناء البلد إلى صفّنا وإلى ما نسعى إليه، وتجنّب الخصومات. ويمكنهم أيضًا أن يساعدونا في إيجاد الماء والأماكن المناسبة للتّخييم، وإطلاعنا على ثقافة النّاس وعاداتهم. وقد قرّرتْ القيادة أن تصطحب «زهوما» بوصفها دليلاً ومترجمًا.

تفاجأ الجميع بهذا الخبر غير المنتظر، وأوّلهم «زهوما». كان الارتباك واضحًا على وجهها. ومن دون أيّ تفسير آخر، أرسل الآمر جنودًا لدفنِ رفيقهم القتيل، وأمر بإيقاد النّار لإعداد فطور الصّباح، ثمّ بإطفاء النّار وتفتيش مخزون الأسلحة. ومرّة أخرى كان الجنديّ المقتول سائق شاحنة، وكان لا بدّ من التّخلّي عن شاحنة أخرى. وهكذا أصبحت الشّاحنات المتبقّية أكثرَ اكتظاظًا من أيّ وقتٍ

مضى. وقبل أن يتحرّك الرّكب، رتّب القائد الأمور لتجلس «زهوما» و«وين» معًا في غرفة الشّاحنة الّتي يركبها هو عادة. وقال إنّه يريد أن يكون للجنود مكان أفسح. لكنّ «وين» أدركت أنّه كان يرغب في أن يمنحها هي و«زهوما» فرصةً لتستريحا بكلّ أمان.

في المرحلة الأولى من الرّحلة، غرقت «زهوما» في نوم عميق، وقد أسندت رأسها إلى كتف «وين». وحين استيقظت، سُرَّت «وين» بأن ترى عينيها قد استعادتا الحياة. وناولتها مزيدًا من عجين الأرزّ، فاستعاد خدّاها تورّدهما... كانت شابّةً وجميلة.

- أين هي عائلتك؟ سألتها «وين» وإلى أين كنت ذاهبة؟

ولّما كانت الشّاحنة تواصل طريقها في ترنّح، روت «زهوما» لـ «وين» -بعينين مليئتَيْنِ حُزنًا وبصوت هادئ- قصّةَ حياتها.

* * *

كانت «زهوما» في الحادية والعشرين من عمرها. وكان والدها زعيم قبيلة كبيرة ذات أملاك في مقاطعة «بامكو»، وهي منطقة خصيبة تقع شمال «لاسّا»، وواحدة من بوّابات الجبال الّتي تسمح بالعبور في اتّجاه شمال التّيبت.

كان على رأس أسرة كبيرة، لها أراض شاسعة وأقنان كثر. ولقد توفّيت والدة «زهوما» أثناء ولادتها، ولم يكن للزّوجتين الأخريين أطفال، فصارت هي قرّةَ عين والدها.

وحين بلغت الخامسة، جاء رجلان صينيّان يرتديان زيًّا رسميًّا

أصفر، ليقيما بين أفراد العائلة. قال والدها إنّهما يريدان دراسة الثّقافة التّيبتيّة. علمت «زهوما» فيما بعد أنّهما مبعوثان من الحكومة القوميّة الصّينيّة[1] من أجل تحسين العلاقات بين الصّين والتّيبت. أظهر الصّينيّان تعاطفًا نحوها. فرويا لها بلغتهما التّيبتيّة المتعثّرة كلّ أنواع الحكايات العجيبة. كان يحدّثانها عن «نووا»[2] الّتي سدّت ثغرة في السّماء، وعن الملك - القرد[3] الّذي تحدّى أحكام السّماء، وعن «مولان»[4] الّتي تنكّرت في شكلِ رجلٍ لتلتحق بالجيش مكانَ والدها حيث استمرّت عشرين سنةً قبلَ أن تُكتشف حيلتها.

كانت «زهوما» مولعة بهذه الحكايات المختلفة عن كلّ ما عرفته في السابق. فصارت تلاحق الرّجلين بأسئلتها الّتي لا تنتهي حتّى إنّهما قالا: إنّ «زهوما» تلقي من الأسئلة ما يفوق عدد النّجوم في السّماء. وبفضل مساعدتهما تمكّنتْ من حَلِّ ألغازِ الحروفِ الصّينيّة.

عاد الرّجلان إلى الصّين، وعمرُها خمس عشرة سنة، وقد تركا لها رُكامًا عظيمًا من الكتب، مثلما خلّفا في نفسها شعورًا عميقًا بالوِحْدة والرّغبة في الرّحيل إلى الصّين.

---

(1) هذه الحكومة وجدت بين 1940 و 1945 إبّان الحرب الصينيّة اليابانيّة بقيادة «وانغ جينغواي» وكانت متعاونة مع المحتلّ اليابانيّ.

(2) شخصيّة ميثولوجيّة صينيّة تعود إلى أقدم العصور تتعلّق بقضيّة الخلق. ف «نو- وا» إلهة تُرجع إليها الأسطورة خلق الجنس البشريّ من طين لازب وتمكينه من قدرة الفعل ورتق شروخ السّماء. وكثيرًا ما تُجسّم في شكل ثعبان.

(3) الملك القرد أسطورة اشتهرت من خلال كتاب وُضع في القرن السّادس عشر وتُرجم إلى اللّغات الأوروبيّة. يروي قصّةَ قردٍ رحلَ للبحث عن سرّ الخلود....

(4) مولان قصة فتاة صينيّة تدعى هكذا. في اللّحظة التي كانت تتهيّأ فيها للزواج أعلن النّفير وكان على والدها المريض أن يجنّد فتنكّرت هي وتقلّدت سلاحه والتحقت بالمحاربين ثمّ قرّرت الآلهة حمايتها ....

لم تنقطع «زهوما» -وهي تتقدّم في السّنّ- عن مُطالبة والدِها بالسماح لها بزيارة الصّين، لكنّه كان دائم الرّفض، متعلّلاً بصغر سنّها أو بأنّ الوقت غير مناسب. ولكن عندما تناهى إلى سمعها أنّ والدها يتحدّث للنّاس عن نيّته حثّ بعض مالكي الأرض على التقدّم لطلب يدها وإرسالها للدّراسة في إنجلترا نظرًا إلى العلاقات التّاريخية الرّابطة بين البلدين، هدّدت بألاّ تتزوّج أبدًا ما لم يُسمح لها برؤية بيكين.

استجاب والدها، وسمح لها بمرافقة مالك منطقة مجاورة في سفره إلى الصّين. ولّما كانت تتكلّم الصّينيّة، فقد قبل الرّجل أن ترافقه بشرط ألاّ تتحدّث بما تعرف وألّا تلقي أسئلة عمّا تجهل. وأُبرِم الاتّفاقُ بحضور الآلهة وعليه يستحيل نقضه.

وهكذا سافرت الفتاة إلى بيكين في الرّبيع.

-«ارتعبتُ من كثرة النّاس ومن كثافة حركة المرور». قالت «زهوما» لـ «وين». «كنت أتخيّل بيكين مَرْجًا شاسعًا، به لغة وثقافة مختلفتان، لا أكثر. وقد مثّل ذلك صدمة كبيرةً لي. لم أكن قادرةً على تصديق أذنيّ. الصّينيّون كثيرو الثّرثرة، ووجوهم شديدة البياض والنّظافة، ليّنة كأنّ الحياة لم تلمسهم. ليست هناك أحصنة، ولا عشب، ولا فضاءات كبيرة، هناك فقط بنايات، وسيّارات، وأشخاص، وشوارع، وكثير من الضّجيج.

أمّا شنغهاي فصدمتني أكثر ممّا صدمتني بيكين. رأيتُ مخلوقاتٍ تمشي في الطّرقات بشعورٍ ذهبيّةٍ وعيونٍ زرقاء،

كأشباح الرّسوم التّيبتيّة. وقد بيّن لي مرافقي الصّينيّ أنّ هؤلاء غربيّون، ولكنّي لم أفهم ما أراد قوله. ولم يكن في استطاعتي أن أسألَهُ، حتّى أحفظ عهدي بألاّ أطرح أسئلةً عمّا لا أعلم».

وعندما عادت «زهوما» إلى التّيبت، كانت تتحرّق شوقا لترويَ للنّاس كلّ الأشياء الغريبة والمُربكة التي شاهدتها، لكنْ لا أحد كان يفهم ما تقول. وبدا على والدها الانشغال بأمر جلل. كان قلقه ومزاجه المتعكّر يمنعانه من أن يعير انتباها لما كانت ترويه له. أمّا زوجتاه، فلم تكونا على أيّ حال تتكلّمان معها مطلقًا. ولكي يعوّض والدها هذا الإهمال إلى حدٍّ ما، كلّفَ خادمًا بمرافقتها والاستماع إلى حكاياتها.

- لم يكن والدي يتحمّل أن يراني وحيدةً إلى ذلك الحدّ، لكنّ كلّ ما قدر عليه هو أن يرسل إليّ أحد خدمه، ولم يدرْ بخلده أنّي قد أُغرم به.

اكتسى وجه «زهوما» بوشاحٍ من قلق.

- جنّ جنون أبي حين علم بالأمر، وقال لي إنّ ذلك ليس حبًّا، بل هو مجرّد حاجة. أمّا أنا فقد كنت أعرف ما أشعر به. ولم تستبدّ بي سوى رغبة واحدة، هي أن أكون في رفقة ذاك الرّجل طول الوقت، وقد أحببتُ كلّ ما يتعلّق به.

في بلدي، كان الحبّ بين نبيل وخادم أمرًا محظورًا. تلك هي إرادة الأرواح، وليس في وسع أحد أن يخالفها. لكنّنا جميعا كائنات ذوات مشاعر، ولا يمكن السيطرة على المشاعر بيُسْر. ولهذا السّبب

كانت هناك قواعد. فإن وقع خادم وامرأة من النّبلاء في الحبّ فإنّ الخيار الوحيد الّذي يبقى للرّجل هو أن يختطف المرأة. وإنْ فَعَلَ هذا، فإنّ المرأة تفقد كلّ شيء: عائلتها وممتلكاتها وحتى حقّها في الوجود بمسقط رأسها. وكان والدي يعرف أنّي عنيدة، لذلك فقد عمل بنصيحة أحد أتباعه، وهو مستشار له من عهد طفولتي، وأرسلني إلى بيكين في مجموعة من الخادمات.

كان للرّجل الذي اصطحب «زهوما» المرّة الأولى إلى الصّين أصدقاء في بيكين، فأُرسلت «زهوما» الشّابّة ذات السّبعة عشر ربيعا إلى بعض بيوتهم. وبعد فترةٍ قصيرة عادت خادماتها إلى البلد. لم يكنّ ليحتملن العيش في محيط غريب. ففي نظرهنّ، لا تنتمي بيكين إلى عالم البشر. كنّ يشعرن بأنّهنّ مُحاطات بالشّياطين. فلا أحد يتكلّم لغتهنّ ولا أحد يأكل طعامهنّ. ولا وجود للمعابد والأديرة، لم يكنّ يحظين بحماية الأرواح. أمّا «زهوما» فقد كانت على خير ما يُرَام، وقد رُسِّمَت في معهد الأقلّيات القوميّة، وهي جامعة أنشأتها الحكومة الشّيوعيّة، من أجل تربية الشّباب القادمين من مناطق الأقلّيّات. وهكذا حلّ حبّ الثّقافة الصّينيّة في قلبها الغضّ محلّ حبّها الخادم.

- «كم يروق لي اللّقاء بأشخاص مختلفين عن التّيبتيّين». أسرّت «زهوما إلى «وين»، «أحببتُ بيكين وساحة «تيان آن مان» العظيمة. وحين نلتُ شهادتي الجامعيّة قرّرتُ البقاء في الصّين مترجِمةً ومدرّسةً للّغة التّيبيتيّة. كنتُ على وشك الانتقال من مبيت الطّلبة إلى جناح الأساتذة حين تلقّيت برقيّة تعلمني أنّ والدي في حال سيّئة جدًّا.

سافرت «زهوما» إلى التّيبت في المساءِ نفسِه، قاطعةً المسافة بأسرع ما يُمكن، نهارًا وليلاً، في القطار أوّلاً، ثمّ في عربة خيل، ثمّ على حصان، وهي تجلد مطيّتها بالسّياط لتستعجل الوصول إلى أراضي والدها.. ولكن حين أدركت سفح جبال التانغولا، أبلغها بعض الخدم الّذين كانوا في انتظارها أنّ السّيّد لم يمتلك القوّة الكافية ليقاوم حتّى عودة ابنته، وأنّه قد مات قبل سبعة أيّام. عادت «زهوما» إلى بيتها مكبّلة بالحزن والشكوك، ورأت من بعيد رايات الصّلاة ترفرف على البيت الّذي يرقد فيه والدها. وحين اقتربت سمعت صلوات الكهنة. كان والدُها ملفوفًا في الأكفان، وكانت زوجتاه جاثيتيْن على شِماله في سكوت، وعلى يمينه وُضِعَت صورة والدة «زهوما» الرّاحلة، وفوقها تميمة من اليشب لبوذا كانت تحملها في حياتها. وقد فُرِشَت السّجادة المطرّزة بالذّهب، السجّادة التي طالما صلّت عليها «زهوما»، تحت تمثال بوذا الذّهبيّ قرب رأس والدها. وكان أبوها مُحاطًا بقرابين للأرواح: أوشحة بيضاء للصّلاة «خاطا»[1]، وكتابات مقدّسة، وأشياء أخرى أتى بها الأصدقاء والأقارب وأفراد العائلة وعُمّال الضّيعة والمزارعون مساهمة في الاحتفال.

- «كنت وارثةَ والدي»، أوضحت «زهوما»، «ولم أكن قد فكّرت قطّ -وأنا تلك المرأة الشّابّة- في واجباته باعتباره مالكًا لضيعة كبيرة. لم يحدّثني البتّة عن شؤونه. ولكنْ، بعد انقضاء أيّام الحداد التّسعة والأربعين، حدّثني مستشاره عن المهامّ الثّقيلة

(1) الخاطا: وشاح تقليديّ من حرير أو قطن يدلّ على الترحيب وعلى الصّلاة من أجل الأرواح لدى التّيبتيّين والمغول وطوائف من البوذيّة.

الّتي كانت في عهدته في الأسابيع السّابقة لوفاته. وأراني ثلاث رسائل: إحداها من حاكم محلّيّ يحثّه على مساعدة الجيش لحماية العقيدة البوذيّة ويدعوه إلى التّمرّد على الصّينيّين، ويطلب منه مالًا وجواميسَ وجيادًا وملابس وقمحًا لفائدة الجيش، ويطالبه بتسميم منابع الماء لحرمان الصّينيّين من وسائل العيش.

أمّا الرّسالة الثّانية فقد كانت موقّعة من جنرال صينيّ يُدعى «زهانغ»، يرجو من والدي المساعدة على «توحيد الوطن الأمّ»، ويقول إنّه يرجو منه المساهمة في تجنّب سفك الدّماء، وإنّه إن رفض فليس له من خيار آخر إلاّ أن يرسل جنودًا على أرضه. وكان يقول أيضًا إنّ ابنته تحظى بالعناية في بيكين.

وأمّا الرّسالة الثّالثة فقد جاءت من الشّقيق الرّابع لوالدي، ووصلت مباشرةً قبل وفاته. وكان الأخ ينصحه فيها بالفرار مع عائلته، لأنّ معاركَ داميةً بين الصّينيّين والتّيبتيّين قد اندلعت في منطقته. وقد هُدِّمت كلّ المعابد، واغتيل المالكون، وفرّ المزارعون. وقد أبلغوه بشائعة عن أسْرِي في بيكين. وكان يرجو أن تصل الرّسالة في الوقت المناسب. أمّا هو فإنّه يترقّب مصيره.

رمت بي قراءة هذه الرّسائل في حيرةٍ كبرى. لم أكن أفهم سرّ كلّ هذه الكراهية بين بلدي وبلد أحلامي. كلّ هذا الرّعب هو الّذي قضى على والدي. فقد كان بين فكّي تهديدات آتية في الوقت نفسه من الصّينيّين ومن التّيبتيّين، ولم يتحمّل المشاهدَ

الموصوفة في رسالة عمّي، ذلك أنّ الدّيانة هي روح الشّعب التّيبتيّ.

فكّرتُ لساعاتٍ في ما عليّ فعله. لم أكن أريد مساعدة الجيش على قتل الصّينيّين لحماية العقيدة البوذيّة، لكنّي في الآن ذاته لم أكن أريد قطعًا أن تدنّس دماءُ شعبي الأرض. فقرّرت أخيرًا الابتعاد عن المعارك آملةً أن أجد حرّيتي....

واصلت «زهوما» بصوت هادئ وهي تروي كيف فكّكت أملاكها، وسرّحت زوجتيْ والدها وقد منحتهما كمّيّةً وافرة من الذّهب، وأعتقت الخدم، ووزّعت عليهم قسمًا كبيرًا من أملاكها. وخبّأت بين طيّات ملابسها الحليّ المتوارثة بين عدّة أجيال في عائلتها، راجيةً أن توفّر تلك الحليّ الحماية لها وأن تمكّنها من العيش في المستقبل. ثمّ فتحت المخازن ووزّعت محتواها على عمّال الضّيعة، وأرسلت تمثال بوذا الثّمين ومعه جميع الأواني الدّينيّة إلى أحد الأديرة. وكانت، وهي تفعل كلّ ذلك على وعي برأي مستشار والدها، فقد كان في خدمة العائلة منذ كان والدها في الثّالثة من عمره وقد بدأ في تهجّي النّصوص المقدّسة. وهكذا فإنّ أجيالاً ثلاثةً قد استفادت من حكمته ومن نصائحه. وها هو الآن شاهد على نهاية هذه العائلة.

وحين فرغت «زهوما» من كلّ ذلك، جالت في غرف المسكن الفارغة. وكان الظّلام قد حلّ، فرفعت مشعلاً وهي تنوي أن تضرم النّار في البيت قبل أن ترحل. وحين همّت بذلك، تقدّم منها المستشار منكّس الرّأس وقال:

- أيّتها السّيّدة، إذا كان هذا البيت قد أمسى، في قلبك، رمادًا، فهل تهَبينه لي؟

فاجأ هذا الطّلب «زهوما» وأدهشها، فهمهمت:

- ولكن لا يوجد متاع في هذا البيت، فكيف ستعيش فيه؟ والمعارك وشيكة...

- لقد جئت هذا البيت فارغ اليدين، وسأرحل عنه فارغ اليدين، ستقودني الأرواح. في هذا المكان استُقبلت في كنف العقيدة البوذيّة، وأنا -حيًا أو ميّتا- جذوري هنا. سيّدتي، أرجو منك أن تلبّي طلبي.

وكان رأسه منكّسًا طوال الحديث.

تأمّلته «زهوما»، وفهمت أنّ هذا الرّجل لم يكن خادمًا من فئةٍ دنيا. وتغيّرت سحنتها تغيّرا تامّا، وقالت وهي مقدّرة قيمة ما تتلفّظ به:

- حسنًا، لتكن الآلهة في حمايتك ولتبلّغك مرادك.. ارفع رأسك وتسلّمْ بيتك.

قالت ذلك وهي تسلّمه المشعل.

قادت «زهوما» جوادها حتّى مدخل السّاحة، وهي تعدّ خطواتها: أربعمائة وتسع وتسعون خطوةً في الجملة. وحين بلغت الباب استدارت، وأدركت لأوّل مرة في حياتها كم كان بيتُ طفولتها عظيمًا. كان التّابوت المنحوت بطابقين القائم إزاءها مُبهرًا بألوان زاهية، والورشات والمطابخ وأجنحة الخدم والإسطبلات وبيوت

المؤن ومخازن الحبوب من كلّ جانب، تحظى بعناية فائقة. وعلى مبعدة وقف مستشار والدها منتصبًا كتمثالٍ تُضيئه شُعْلة.

عبرت العتبة، وفي ما تبقّى من ضوء النّهار، لمحتْ رجلاً وجوادًا محمّلاً بمتاع ثقيل.

سألتْ مندهشة:

- مَنْ هنا؟

- سيّدتي.. هذا أنا..

كان الصّوت مألوفًا لديها.

- خادمي؟ أأنت هو؟ ما الذي جاء بك؟

- أنا... أودّ أن أكون دليلاً لسيّدتي.

- دليلاً؟ وكيف تعرف أين أريد الذّهاب؟

- أعرف. أدركتُ ذلك عندما عادت سيّدتي من بيكين وروت لي أخبارها.

كانت «زهوما» متأثّرة حتّى إنّها لم تدْرِ ما تقول. ولم تكن تعرف أنّ الخادم يحمل في قلبه هذا القَدْرَ من المشاعر والشّغف. كانت تودّ أن ترى تعبير وجهه، لكنه ظلّ منحنيَ الرّأس.

- ارفعْ رأسك ودعني أنظر إليك.

- سيّدتي.. خادمك لا يجرؤ على ذلك.

- انطلاقًا من هذه اللّحظة لم أعد سيّدتك ولم تعد خادمي. ما اسمك؟

- لا اسم لي، أنا فقط «خادم» مثلما كان والدي.
- إذن، أنا من يمنحك اسمًا...فهل تقبل؟
- شكرًا لك سيّدتي.
- وعليك أن تدعوني «زهوما»، وإلاّ فلن أقبل أن تكون لي دليلاً.

غمغم الرّجل مرتبكًا:
- نعم... لا...

ابتسمت «زهوما» وهي تشرح لـ «وين» كيف سمّته «تيان آن مان» على اسم السّاحة الكبيرة التي أحبّتها في بيكين. بيد أنّ الأسى سرعان ما غمر ملامحَها حين روت بقيّة الحكاية.

فجأةً أشار «تيان آن مان» بإصبعه إلى الأعلى وصاح: «سيّدتي، نار! نار عظيمة!».

التفتت «زهوما» لترى البيت الكبير مشتعلاً، وفي السّاحة رأتْ مستشار عائلتها بين ألسنة اللّهب وهو يتلو الصّلوات بصوت مرتفع. انهمرت الدّموع على وجهها.. كان مستشار عائلتها المخلص الأمين يقدّم نفسه قربانًا في البيت الّذي نذر له حياته.

توجّهت «زهوما» و«تيان آن مان» نحو الشّرق، نحو الصّين. كان «تيان آن مان» دليلاً جيّدًا. يسلك بهما مسالك غير مطروقة لتجنّب ساحات المجابهات بين الصّينيّين والتّيبتيّين. وكان لهما زاد وافر من الطّعام، من لحم الجاموس المجفّف، ومن الشّعير والزّبدة والجبن. وكانت الأنهار تمنحهما الماء، والغابة الحطبَ لإيقاد النّار.

اجتازا عددًا من الجبال الشاهقة، وكان «تيان آن مان» يعرف دائمًا ملجأً يأويان إليه.

وخلال الرّحلة الطويلة وهب «تيان آن مان» كلّ قلبه وكلّ روحه للعناية الّتي يبذلها من أجل «زهوما». كان يَرِدُ الماء، ويطبخ، ويجمع الحطب، ويعدّ المضطجع، ويحرس باللّيل، ولم يكن ينسى شيئا. لم تعش «زهوما» في الطّبيعة الصِّرف قبل ذلك، فلم تعرف كيف تساعده. وهي تجلس قرب النّار الرّاقصة أو تتهادى على جوادها، كانت تغرق صامتة في حبّه. ورغم وضعهما اليائس، كانت سعيدة.

لكنّ الطقس تغيّر. فاجتاحت السّهلَ ريحٌ عاتية، ثمّ عاصفة ثلجيّة كنست كلّ ما يعترض طريقَها. كان الجوادان يتقدمان بمشقّةٍ مترًا مترًا. وأدرك الفتى أنّ المواصلة ستكون خطرًا محدقًا، فنصب خيمةً في حمايةِ صخرةٍ عظيمة، حيث ستتمكّن «زهوما» المرهقة من النّوم، ثمّ وقف أمامها لحمايتها من العاصفة.

عند منتصف اللّيل، أيقظ «زهوما» عصفُ الرّيح. فنادت «تيان آن مان»، لكنْ لم يجبها أحد. ووجدت صعوبة بالغة في النّهوض والوقوف على قدميها في العاصفة، فزحفت وهي تبحث عنه وتنادي باسمه. ولم تكن تعرف أين تتوجّه في الظّلام. فتهاوت وسقطت في جُرف.

وحين عاد إليها الوعي وجدت السّماء زرقاء لامعة، ووجدت نفسها طريحة على المنحدر الصّخريّ لأحد الأودية. لا أثرَ لـ «تيان آن مان»، لا أثرَ لأغراضهما، ولا للجوادَيْن. كانت السّماء الزّرقاء تنظر

إليها وهي تبكي. وكان هناك كواسر كثيرة تحوم فوقها، تردّ على نحيبها بالصّراخ.

-ناديتُ «تيان آن مان» وأعدتُ النّداء وصحتُ حتى بحّ صوتي. لم تكن لي أدنى فكرة عمّا ينبغي لي فعله. ومن حسن حظّي لم أكن جريحة، لكنّي لم أعرف أين أنا، ولا أيّ طريق أسلك. فأنا فتاة من عائلة نبيلة، تعوّدت على أن يعتني الخدم بشؤوني. وكلّ ما كنت أعرفه عن الشّرق والغرب هو شروق الشّمس وغروبها. ومشيت أيّامًا دون أن يعترضني كائنٌ حيٌّ. ثمّ انهرت من البرد والجوع. وخلتُ أنّني على مشارف الموت حين سمعت ضجّة عرباتكم، فصلّيت للإله بوذا لكي تتفطّنوا لوجودي.

خيّم صمتٌ طويلٌ في غرفة القيادة، ولم تدر «وين» ماذا تقول لـ «زهوما» بعد كلّ ما سمعت.

بادر سائق الشّاحنة بالحديث. كان يبدو مركّزًا أنظاره في الطّريق، لكنّه أصغى إلى كلّ حكايتها بانتباه:

- هل تعتقدين بأن «تيان آن مان» مازال على قيد الحياة؟

- لا أدري، أجابت «زهوما»، لكن إذا كان ذلك كذلك فسأتزوّجه.

كان الجميع ذلك المساء يخشى من النّوم. وحول نيران المخيّم، جلس الجنود المنهكون ظهرًا إلى ظهر، فئةٌ تتدفأ على النّار وفئةٌ أخرى تسبر أغوار الظلام.

وبغتةً التفتَتْ «وين» إلى «زهوما»:

- عندما هُوجِمْنَا هذا الصّباح صرختِ بشيء باللّغة التّيبيتيّة، ماذا قلتِ؟ كيف عرفتِ أنّ التّيبتيّين كانوا على مقربة؟
- سمعتهم يهمسون بالكلمات الطّقوسيّة الّتي يتلفّظ بها التّيبت قبل عملية القتل، وكنتُ أريد أن أمنعهم بالقول إنّ أحد التّيبتيّين ضمن المجموعة.

طفقت «زهوما» تصرخُ من جديدٍ مُطلقةً صرخةً حادّةً جعلت الرّعب يملأ كلّ القلوب. شاهد أولئك الّذين يكوّنون الحلقة الخارجيّة في الحراسة أشباحًا سودًا يتسرّبون نحوهم.

قدّرت «وين» غريزيًا أنّه ينبغي عدم التحرّك وأن من يبدي حركة سَيُقتل. وفي بضع ثوان حاصرهم عدد لا يُحْصَى من التّيبتيّين مسلّحين بالبنادق والخناجر. ظنّت «وين» أنّ نهايتهم قد حانت. ثمّ أخذ صوتٌ في غناءٍ موحش، وكان اللّحن تيبتيًا، أمّا الكلمات فكانت صينيّة.

أيّها الجبل المكلّل بالثّلج

لمَ لا تبكي؟

هل تجمّد قلبك أكثر من اللازم؟

أيّها الجبل المكلّل بالثّلج

لمَ لا تبكي؟

هل يؤلمك قلبك كثيرًا؟

اتّجهت كلّ الأنظار إلى «زهوما» التي استمرّت تغنّي، وقامت بتؤدة وتقدّمت نحو القائد التّيبتيّ. وبعد أن حيّته على الطّريقة التّيبتيّة، أخرجت من فستانها عقدًا وأرته إيّاه. وكان لرؤية هذا العقد أثر فوريّ في التّيبتيّ. فأشار إلى رجاله، فتراجعوا. ثم ردّ على «زهوما» التّحيّة، وخاطبها بالتّيبتيّة.

لم يكن لـ «وين» ولا لبقيّة السّرّيّة أدنى فكرة عما يدور بينهما، لكنّهم كانوا على يقين من أنّ «زهوما» تبذل ما بوسعها لتنقذ حياتهم. وأخيرًا، بعد نحو عشر دقائق، التحقت «زهوما» بهم. وقالت إنّ التّيبتيّين يريدون أن ينزلوا بهم العقاب، فجيش التّحرير الشّعبيّ في تقدّمه نحو الغرب أطفأ الشّعل الخالدة في الأديرة وقتل كثيرًا من الرّعاة. ويقدّر التّيبتيّون أنّ مائتين وواحدا وثلاثين راعيًا قد قُتِلوا، وهم ينْوُون أن يأخذوا من الصّينيّين ضعف هذا العدد ثأرًا لهم. فاوضتهم «زهوما»، لكنّهم رفضوا أن يُبدوا أيَّ نوع من الرأفة، مدّعين أن ترك هؤلاء الصّينيّين سيتيح لهم قتل مزيد من التّيبتيّين. لكنّ القائد قال إنّه رغم ذلك سيمنحهم فرصة إن قبلوا ثلاثة شروط. أوّلها: يريد التّيبيتيّون أن يحتفظوا بعشرة رجال صينيّين رهائن ليقتلوهم إن استمرّ جيش التّحرير في قتل التيّبت، والثّاني: يريدون أن يعود الصّينيّون إلى بلدهم وألّا يخطوا خطوةً واحدةً في اتّجاه الغرب. والشّرط الثالث: على الصّينيّين أن يتخلّوا عن سلاحهم ومُعِدّاتِهم بما في ذلك الشّاحنات.

قال رجل الرّاديو إنّ العودة على الأقدام بلا زاد ولا ماء تعني الموت. فأجابته «زهوما» بأنّ التّيبتيّين على استعداد ليتركوا لهم اللّحم المجفّف.

ظلّ قائد السّريّة طيلة هذا الوقت ملازمًا الصّمت. ثمّ طلب من «زهوما» أن تستأنف الحديث مع التّيبتيّين وأن يقبلوا أن يكون الحديث بين الطّرفين مباشرًا. عادت زهوما» دون تأخير:

- إنّهم يقبلون. عليكم أن تضعوا أسلحتكم على الأرض، وتتقدّموا من هنا.

فكّ القائد حزامه، ووضعه بلطف، ثم التفت إلى رجاله يخاطبهم:

- أعضاء الحزب، ضعوا جميعكم أسلحتكم على الأرض كما فعلتُ، ثمّ اتبعوني إلى هناك. أمّا الآخرون فليبقوا هنا.

غادر ما بين عشرين وثلاثين جنديًا المجموعة الصّامتة تحت مراقبة التّيبتيّين. وبعد بضع دقائق التحق بعض الرّجال بالصّفوف، لكنّ اثني عشر رجلا ظلّوا مع القائد الّذي طلب من «زهوما» أن تخبر التّيبتيّين بأنّهم، وإن كانوا قد اشترطوا عشر رهائن فإنّ اثنيْ عشَر رجلاً من أعضاء الحزب يرغبون في البقاء معًا، لكي يحيوا أو يموتوا مجتمعين، وهكذا يصبح لديهم اثنتا عشرة رهينة. والظّاهر أن التّيبتيّين تأثّروا بالتّضحية بالرّجلين الإضافيّين. فلم يعطوا الصّينيّين اللّحم المجفّف فحسب، ولكن منحوهم بعض القِرب من الماء وخناجر أيضًا.

مكثت المرأتان في معسكر التّيبتيّين. كانت «وين» قد حدّثت «زهوما» باختصار عن بحثها عن «كجون» ورغبتها في الرّحيل إلى «كينغهاي» في الشّمال. وبفضل «زهوما» قبل القائدُ التّيبتيّ السّماح لهما بمرافقة رجاله نحو الغرب. وحين يدركون وجهة الشّمال، سوف يرسل معهما دليلاً. كانت «وين» تركب خلف «زهوما» على

أحد أحصنة التّيبتيّين، ممسكةً بخصرها، سألتها عمّا فعلت لمفاوضة التّيبيتيّين. فأفهمتها «زهوما» أنّ الحليّ الّتي تحملها تجعلها في صفوف مالكي الأراضي. وحتّى لو كان التّيبتيّون ينتمون إلى فرق كثيرة مختلفة، لكلّ فرقة منها ثقافتها وعاداتها، فإنّهم يقدّسون بوذا جميعًا، ولكلّ الرّؤساء حليّ متماثلة ترمز إلى سلطتهم. وهكذا اعترف قائد التّيبتيّين في الحال بمركزها. وكانت هي راضية باستعمالها سلطتَها لتساعد «وين»، لأنّها مدينة بحياتها *للمنبا* (الطّبيبة) الصّينيّة.

ظلّت المجموعة تسير نحو الغرب أربعةَ أيّامٍ ونصفًا. اقترب القائد حينئذ من «زهوما» وقال لها: إذا كنتما ما تزالان ترغبان في الذّهاب إلى «كينغهاي»، فإنّ عليكما أن تسلكا طريق الشمال من هنا. كانت الفرقة قد توقّفت لإعداد الزّاد والماء لهما عندما برز ثلاثة رسل على ظهور الجياد العاديات لتنبيههم من اقتراب فرقة صينيّة. وفي الحين أمر القائد التّيبتيّ رجاله بإخفاء جيادهم في الأدغال القريبة، وتبعتهم «زهوما» بالجوادَين.

في الغابة لم تكن «وين» تقدر على منع نفسها من التأثّر بفكرة لقاء القوات الصّينيّة لقاءً مباغِتًا غيرَ منتظر، لكنّ حماسها خبا وهي تشاهد الغضب الشّديد يرتسم على وجوه التّيبتيّين والرّهائن الصّينيّين الاثني عشر وقد سيقوا إلى الجبال. وشاهدت، مرتعبةً، فصيلاً من الخيّالة الصّينيّين يتقفّون أثر بعض التّيبتيّين الّذين لم يسارعوا إلى التخفّي، ويقتلونهم. كانت الطّلقات تأتي من كلّ جانب، والرّجال يسقطون من ظهور جيادهم والدّماء تتدفّق. تعلّقت «وين» بيد «زهوما»، وهي ترتجف أمام هذه الفظاعة.

تبدّى من السّماء نورٌ خافت. وعندما أمر القائد التّيبتيّ بالتحرّك، كان الظّلام شديدَ السواد. لاحظت «وين» القلق يستولي على جسد «زهوما» وهي تحثّ جوادها خشية التّخلّف عن المجموعة. لكنّ الرّيح والظّلمات قد اتّحدت لتفريقهما عن رفاقهما. وفيما كانتا تتقدّمان بصعوبة وسط العاصفة، حمحم الجواد فجأةً حمحمةَ فزعٍ طويلة ورماهما أرضًا. وبعد هنيهة، بلغهما صوتُ جسده الأصمّ وهو يتحطّم في عمق الوادي. وهكذا فإنّه، بطرحهما أرضًا، قد أنقذهما من موت لا ريب فيه. ظلّتا ذاهلتيْن وقد تعلّقت إحداهما بالأخرى وسط الرّيح العاتية، مندهشتيْن من بقائهما على قيد الحياة. مرّت بخاطر «وين» كلمات «وانغ ليانغ»: «الحرب لا تمنحك متعة الدّراسة ولا أدنى فرصة للتّأقلم».

4

عائلة تيبتيّة

أجهدَتْ «وين» نفسَها وهي بين الحياة الموت على فَتْح عينيْها. كانت مطروحةً أرضًا، لكنّها تشعر بالدّفء وقد اتّخذتْ وضعًا مريحًا. وهناك شعاعٌ من الضّوء الباهر ينهمر عليها ويمنعها من رؤية ما يحيط بها. وبمشقّةٍ كبيرة حرّكت جسدَها المنهك. كان جسدُها كاملاً لا ينقصه شيء، لكنّ عقلها كان غائبا تمامًا.

– «أهذه شمس عالم البشر»، تساءلت، «أم هو شعاعٌ مقدّسٌ من السّماء؟»

انحنى عليها وجهٌ مألوف:

– كيف حالك «منبا»؟

إنّه وجه «زهوما»... وهكذا عادت «وين» إلى عالم الأحياء.

– أين نحن؟

– تحت خيمةِ عائلةٍ من الرُّحّل. من حسن حظّنا أنّنا بلغنا حدود البراري الّتي يَشتون فيها. لقد انهارت قواكِ ولم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا لولا «جيلا»، رئيس العائلة الّذي انتبه لوجودنا.

حاولت «وين» أن تعتمد على مرفقها لتقوم، فقالت «زهوما»:

- لا تتحرّكي. لقد وضعوا مَرْهَمًا على جبينك. بمَ تشعرين؟

- حقيبتي...

جسّت «وين» الأرض بحثًا عن حقيبتها التي حمَلَتْها بحرصٍ شديدٍ منذ مغادرتها «زهنغ زهو»..

- لقد ضاعتْ، قالت «زهوما»، لكنّ الكتاب الّذي كنت تحتفظين به في جيبك موجود، وضعتُه تحت وسادتك. لا بدّ أنّه عزيز عليك، فقد كنت متشبّثةً به حتّى وأنت فاقدة للوعي.

دخلت الخيمةَ فتاةٌ في الحادية عشْرة أو الثّانية عشْرة وهي تحمل قدحًا من خزف مدّته بيد مضطربة قبل أن تختفي. أوضحت «زهوما» لـ «وين» أنّ القدح يحتوي على ماء بارد وأنّ من أتت به هي إحدى بنات هؤلاء الرّحّل وأنّ باقي العائلة في الخارج منصرفون إلى أشغالهم. وسوف تنتقل العائلة قريبًا إلى مرعى الرّبيع. وفي انتظار ذلك فإنّ بإمكانها البقاء والاستراحة.

- ولكن كيف يمكنني أن أفرض وجودي ضمن هذه العائلة؟ لا شك أنّ لديهم من المصاعب ما يغنيهم عن الاعتناء بمريضة.

- التّيبتيّون مضيافون وكرماء في الفقر وفي الغنى. هذه عادات بلدنا.

ثمّ خرجت «زهوما» للحديث مع أفراد العائلة.

وما إن خرجت حتّى فتحت «وين» كتاب المقالات لـ «ليانغ شيكيو» وأخرجت منه صورة «كجون». كان يبتسم لها وسط كلّ هذه الغرابة.. عندها تأمّلت المَسْكن المدهش الّذي يأويها، كانت جوانب الخيمة الأربعة مصنوعة من قطع كبيرة من قماشٍ غليظٍ نُسِج

من وبر الحيوان، وتقوم على أعمدةٍ خشبيّةٍ متينة في قمّتها كُوّة يمكن فتحها وغلقها بواسطة ياقة طويلة.

كانت هذه الكوّة هي مصدر ذلك الشّعاع الضّوئي الذي بهرها حين استيقظت. تابعت بعينيها أعمدة الدّخان المتعرّجة في النّور، المتصاعدة من موقدٍ بسيطٍ وسط الخيمة. وفي ركن منها كان ثمّة منفاخ وكدس من الأواني ذات الألوان الزّاهية، وصحون وجرار. وفي جانب آخر من الخيمة تبيّنت ما يمكن اعتباره مذبح العائلة[1]. وفوق مائدةٍ تراكمت عليها الأغراض الدّينية عُلّقت صورةٌ لبوذا التّيبتيّ[2] مزدانة بنسيج مقصّب من الحرير، وعلى اليمين قامت آنيةٌ ضخمة من البرونز إسطوانيّةَ الشّكل. وفي ركن قصيّ كانت هناك جملةٌ من الأغطية والزّرابي والملاءات والملابس. وفي الجانب الآخر من المذبح تراصّت أكياس مليئة بشيء ذي رائحة نفّاذة. أمّا باب الخيمة المُحاك من قطعة قماش فكان متدلّيًا، حتّى إنّ الشّخصَ البالغ لا يمكنه الدّخول عبره إلاّ مُنحنيًا.

لم يكن بوسع «وين» أن تجزم ما إذا كانت العائلة ميسورة أو مُعسِرة، نظرًا إلى الزخارف العديدة الذّهبيّة والفضّيّة، وكثرة الأدوات المحدودبة، وتراكم الأقداح والجرار والمفروشات. كان كلّ شيء يبدو لها جديدًا وغريبًا لا سيّما تلك الرّوائح الخاصّة: مزيج من رائحة الرّوث والعرق وجلود الدّوابّ.

---

(1) في المعاجم وفي تقاليد الدّيانة المسيحيّة: مائدة مرفوعة توضع عليها القرابين.

(2) تنتشر البوذيّة في مناطق مختلفة من العالمين الصّينيّ والهنديّ مع فويرقات في المبادئ والطّقوس.

وكان بإمكانها أن تتبيّن وقع الأقدام خارج الخيمة. شعرت لأوّل مرّة في حياتها بمدى الارتياح وهي تلصق أذنها بالعشب وتسمع وقع خطى الرّجال. ولّما عادت «زهوما»، كان يحيط بها حشد من الأشخاص من كلّ الأحجام والأعمار. ظَلّت «وين» ممدّدةً وهي تنظر إلى وجوههم الغريبة، وقد أصابها دوار.

قدّمت لها «زهوما» مُضَيِّفِيهَا: «جيلا» ربَّ الأسرة، وزوجتَه «سايرباو»، وأخَاه «جي آر». كان للعائلة ستّة من الأبناء، لكنْ لم يحضر منهم سوى أربعة، أمّا الاثنان المتبقّيان فقد التحقا بالدّير. لاحظت «وين» أنّ من العسير عليها أن تحفظ أسماءَ الأبناءِ السّتّة التّيبتيّةَ. شرحت لها «زهوما» أنّ كلّ اسم يحتوي على مقطع من «المانترا»[1] المقدّس الذي يردّده كلّ تيبتيّ مئات المرّات كلّ يوم: «**هوم ما ني باد مي**». واقترحت على «وين» أن تنادي كلّ طفل بمقطع من «المانترا» : وليكن «**هوم**» للابن الأكبر و«**ما**» للأوسط وهو في الدّير، أمّا البنتان فهما «**ني**» و«**باد**». و«**مي**» الابن الآخر الذي التحق هو الآخر بالدّير، وأصغرهم «**هوم**». طلبت «وين» من «زهوما» أن تشكر العائلة بالنيابة عنها، ولاحظت على وجوههم ابتسامةَ حياء حين كانت «زهوما» تترجم كلامها.

خلال الأسابيع الموالية، اعتنى «جيلا» وزوجته الطيّبة بـ«وين». فكانا يقدّمان لها الشّاي باللّبن ممزوجًا بأعشاب طبّيّة، فاستعادت صحتها. أخبرتها «زهوما» بأنّ العائلة قد أجّلت انتقالها إلى مراعي

---

(1) المانترا المقدّسة: صيغة صوفيّة مكوّنة من مقطع واحد أو من مقاطع محدودة تُغنّى في البوذيّة والهندوسيّة والسّيخيّة لغاية التأمّل أو لأغراض دينيّة أخرى.

الرّبيع إلى موعدٍ آخر، عندما تصبح «وين» قادرةً على تحمّل مشاقّ الرّحيل.

كانت «زهوما» تفضّل البقاء رفقة العائلة إلى حين يصبح الطّقس أكثر اعتدالاً. وقبل حلول الصّيف، ستكون كلتاهما قد تعوّدت على العيش في الطبيعة، وتكون العائلة قد كوّنت احتياطيًا من المؤونة يكفي لتوفير ما تحتاجانه من الزّاد، لها ولجواديْهما.

لم يكن أمام «وين» سوى القبول بهذا الوضع مع أنّها ملازمة للفراش، وعاجزة عن الانضمام إلى «زهوما» الّتي كانت تساعد العائلة في أعمالها، وعن تبادل الحديث معهم إذ لم تكن تتكلّم لغة القوم، فكانت الأيّام تبدو لها بلا نهاية. أثناء فترة نقاهتها، ظلّتْ تراقب الحياة اليوميّة الّتي تحياها العائلة. وما انفكّ تناوب الأيّام الصارم وهي تسير، على ما يبدو وفق وتيرة لم تتغير منذ أجيال، يثير دهشتها. كان يبدو على كلّ شخص أنّه يعرف مكانته، ويُنجز كُلَّ يومٍ عددًا كبيرًا من المهامّ.

كان «جيلا» و«جي آر» -يُساعدهما الابنُ الأكبر «أوم»- مَسْؤُولَيْنِ عن الأعمال خارج البيت، كرعي قطيع الجواميس والضّأن، واصطياد الحيوانات من أجل اللّحم، ودبغ الجلود لإصلاح الأدوات، وترقيع الخيمة. ذكرت لها «زهوما» أنّ هؤلاء هم من يرحلون دوريًّا عن الدّيار لتوفير ما يحتاجونه. أمّا «سايرباو» وابنتاها فإنّ عليهنّ حلب الدّوابّ وإنتاج الزّبدة وإعداد الطّعام وجلب الماء وصنع أقراص من الرّوث تستعمل لإيقاد النّار وللطّبخ وإضاءة الخيمة، كما ينسجن ويصنعن الحبال.

كانت «وين» مفعمةً بالإعجاب إزاء الأشغال اليوميّة التي تجعل العائلة تعيش في اكتفاء، لكنّ إحساسها بالجهل ظلّ يثقل عليها. فمجرّد مقاسمتهم الطّعام يقتضي أن تتعلّم سلسلة جديدة من القواعد. وعدا أواني المطبخ، فإنّ كلّ ما يستعملونه من الأدوات سكّينٌ طولُ نصله عشرة سنتمترات يعلّقونه في أحزمتهم. وحين حاولت «وين» استعماله للمرّة الأولى لقطع جزء من لحم خروف كاد السّكّين يخترق كفّها. أمّا الأطفال، فقد تجمّعوا حولها مدفوعين بحبّ الاطّلاع واللعب وكأنهم في حضرة حيوانٍ ممراحٍ وهم فاغرو الأفواه.

كانت العائلة تتناول الطّعامَ نفسه في الوجبات الثلاث. ففي الصّباح «يمتصّون الجياكا»، وهو عجينٌ من دقيق الشّعير المحمّص واللّبن الرّائب مع الشاي المخلوط بالزّبدة. أمّا الغداء فهو «مختلط»، وهو دائمًا وفير، يتكوّن من «التّسمبا» المصنوعة من دقيق الشّعير المحمّص، ومن الزّبدة واللّبن الرّائب، إضافة إلى اللّحم القديد المطبوخ مع العظام، وكلُّ فردٍ يقطع نصيبَهُ منه بسكّينه الخاصّ. وقد بيّن «هوم» الصّغير لـ«وين» كيفية قطع اللّحم بيديها وقضمه. وتُقدَّم أيضًا، ضمن الغداء، فطائرُ لذيذة مقليّة في الزّبدة. وكانت «وين» تلاحظ مدى أهمّية الغداء بالنّسبة إلى الجميع، إذْ يستمرُّ أحيانًا لساعتَيْن. وأثناءَه تقضي العائلة -وهي قليلة الحديث في العادة- بعضَ الوقت في الثّرثرة. وفي المساء يتناولون اللّحم مع دقيق الشّعير مجدّدًا، لكنّه مطبوخ في نوع من الحساء.

وقد كانت هذه الوجبات مغذّيةً وصحّية حتّى إنّ بَشَرَة «وين» المشقّقة تعافت، وبدأ خدّاها يستعيدان شيئًا من ألقِهما كُلَّ يوم.

أخذت تشعر بجسدها يسترجع قوّته، وببشرتها تشتدّ كما لو أنّها كانت تتأقلم مع الرّياح العاتية والبرد والشّمس الحارقة. وعلى الرغم من أنّ أفراد العائلة لم ينزعجوا من وجودها، فإنّهم لم يحاولوا محادثتها البتّة، ولم يتوجّهوا بالخطاب إلاّ لـ«زهوما» الّتي كانوا يخشوْنها على ما يبدو. وكانت «زهوما» تروي لها لاحقًا ما يدور بينهم من حديث. فينتاب «وين» الإحساس -وقد أُقصِيتْ تمامًا من كلّ محادثة- بأنّها واحدة من دوابّ العائلة: إذ توُفَّر لها الحماية وتُعامَل بلطف ويُقدَّمُ لها الشّراب والغذاء..لكنّها مُقصاةٌ من عالم البشر.

كانت ممارساتُ العائلةِ التّعبّديّةُ تُفاقِم إحساسَها بالغربة. أمّا هُم فكانوا دائمي الصّلاة، يردّدون «المانترا»: «*أوم مانيبدم هوم*» بصوتٍ خفيضٍ أثناء العمَل. وغالبًا ما يجتمعون، فيدير «جيلا» الأب الإسطوانةَ البرنزيّة الثّقيلة الواقعة فوق المذبح بواسطة حبل، ويقود الرّقى السحرية لأفراد أسرته وهُمْ يديرون عجلاتٍ صغيرة مركوزة على عصيٍّ. شرحت «زهوما» لـ«وين» أنّ الأسطوانة الكبيرة والعجلات الصّغيرة هي طواحين الصّلاة. وهكذا ظلّت «وين» رهينةَ ما تُقدّمُ لها «زهوما» من شروح. ولم تفتأ تهنّئ نفسها بحسن طالعها إذْ جمعَها بهذه المرأة ذات الشّجاعة الفائقة والذّكاء. فمن دونها ما كان لها أن تفهمَ شيئًا من هؤلاء النّاس الّذين كانوا -رغم حسّهم الرّوحانيّ العميق وحريتهم اللامبالية- مختلفينَ عن الصّينيّين اختلافَ السّماء عن الأرض.

ورغم ما بينهم من وفاق، كثيرًا ما تنشب بينهم الخلافات. وفي الأوقات القليلة الّتي تجد فيها «وين» نفسَها وحيدة، كانت تُخْرِجُ

صورة «كجون» وتداعبُ وجهه الباسم. وفي أحد الأيّام دخل «هوم» الخيمةَ والصّورة في يدها، فألقى الطفل عليْهَا نظرةً وخرج راكضًا وهو يصرخ من الرّعب، بحثت «وين» عن «زهوما» لتسألها عمّا أخاف الطّفل إلى هذا الحدّ. فشرحت لها أنّه لم يكن يعرف الصُّوَر الشمسيّة، لذلك ارتعب من الرّجل الذي «ينام» داخل الورقة.

ثمّ جاء اليوم الّذي رأت فيه العائلة أنّ ضيفتهم قد بلغت من القوّة ما يجعلها قادرة على المسير. وعندما حُمّ الرّحيل، استيقظت «وين» فجرًا، ورأت أنّ عدّة أغراض قد طُويت ولُفّت لتحملها الجواميس. ولّما لم تكن تعرف بعدُ كيف تمتطي الحصان، صنعَ لها «جي آر» شقيقُ «جيلا» سرجًا على شكلِ كرسيٍّ حيث وُضِعَتْ لها بعضُ الأغراض لتظلّ ثابتة فلا تسقط إنْ راودها النّعاس، وأفهمها بالإشارة أنّه سيمسك بعنان الجواد. كانت الطّريق التي سلكوها شديدة الوعورة، وأحيانًا تضطرّهم إلى التّوقّف والاختباء وسط قطيع الجواميس. وكانوا أثناء اللّيل ينامون في العراء محتمين من الثّلوج والرّياح بالصّخور. لم يعترض طريقَهم أيُّ كائنٍ حيّ. فتساءلت «وين» في قرارة نفسها عن «المارقين» الذين يدّعي جيش التّحرير أنّه يلاحقهم في هذا الخلاء.

كانت في حالة انهيار بسبب الارتفاع والمسير الذي أرهق قواها وفتّ في عزمها، فهل كان «كجون» يلقى ما تلقاه من عناء وشقاء؟ وماذا بوسعها أن تفعل لتلتقي به في هذا المدى الثلجيّ وهي لا تتحدّث لغة القوم ولا يمكنها أن تعيش وحيدةً ولا أن تستمرّ من

دون مطيّة؟ وتعاقبت الأيّامُ متشابهةً كلُّها، وما كان لها أن تعرف منذ متى وهم يسيرون.

وحين بلغوا وِجْهَتهم، شرحَتْ لها «زهوما» أنّهم على مقربةٍ من جبال «بيان خار»[1] وأنهم سيضربون مخيّمهم الرّبيعيّ في مرجٍ أخضَر قرب نهر «يالونغ».

ضرب «جيلا» وأولاده في غضون نصفِ يومٍ الأوتادَ، وبسطوا البُسُطَ وشدّوا الحبال. وحين قامت الخيمة رصفت «سايرباو» وبناتها الأثاث بمهارة.

كانت العادة تقتضي بأن تحتفل العائلة، إثرَ نصب الخيام، بالحدث بتناول اللّحم و«التّسامبا» والفطائر المقليّة في الزُّبدة وباحتساء جعة الشّعير. ومثلما كانت تفعل طوال الرّحلة أحضرت «سايرباو» لـ«وين» شايَ الأعشاب الطبية الممزوج بالزّبدة. وبعد الحفلة قاد «جيلا» الصّلاة. وفي تلك الليلة أسرّت «زهوما» لـ«وين» بأن الصّلاة لم تكن تتعلّق بتسمين الجواميس والخرفان فحسب، وإنّما كان «جيلا» يتضرّع للآلهة لتحمي «وين» وترعاها. فتأثرت أيّما تأثّر. وحين خلت إلى نفسها تلت «المانترا» البوذيّة *«أوم ماني بدم هوم»*.

في اليوم التالي ارتدت «وين»، لأوّل مرّة، فستانًا تيبتيًّا. كان ثَوْبًا مخصّصًا للعذارى ارتدته «سايرباو» قبل زواجها: مجموعة من الملابس الدّاخليّة البيضاء اُتّخِذت من قماش صلب، وقميص بلا ياقة بأكمام طويلة يزرّر من الجانب، وسراويل كثيرة التّطريز تنحصر

(1) سلسلة جبليّة في الشّمال الشرقيّ لجمهوريّة الصّين الشّعبيّة.

عند الرّسغ، وأخيرًا ارتدت «وين» فستانًا بخطوط عريضة زرقاء وورديّة وأرجوانيّة يصل إلى القدمين. وبيّنت لها «سايرباو» كيف تشدّه بنطاق من الحرير المطعّم، ومن قُبُلٍ عُقِدَت قطعةٌ من قماشٍ مخطّطٍ بألوانِ قوسِ قزح شبيه بالميدعة. كانت «وين» لمّا تزل منهكة، فأعطتها «سايرباو» سترةً من جلد الخروف بياقةٍ عالية وحذاءً عاليًا من اللبد لحمايتها من رياح الجبال. ومن ثمّ وضعت لها سوارًا من اليَشب، وأحاطت رقبتَها بمسبحةٍ حبّاتُها من الخشب.

- «ستقيك هذه المسبحة من الشّرّ وتدفع عنك الأشباح»، قالت لها «زهوما».

ثم ابتسمتْ لها وقلّدتها بنفسها، وهي صامتة، عِقْدًا من حبّات العقيق.

طلبت «سايرباو» من «وين» أن تجلس قبالتها، وفَرَقَت شعرَها نصفين لتصنع لها ضفيرتيْن، وطلبت «باد» أصغرُ البنات من «وين» وهي تقف إلى جانبها أن ترى صورتها في وعاءٍ مليء بالماء جلبته للغرض، فباستثناء ضفيرتيْها القصيرتيْن لأنّ شعرها لم يتجاوز مستوى كتفيها، فقد بدت تيبتيّة حقيقية. ثمّ دسّت كتابها الثّمين الذي يحوي صورة «كجون» ورقعة شقيقتها، في الجيْب الكبير من فستانِها التّيبتيّ.

بعد بضعة أيّام لاحظت «وين» أنّ أحدهم وضع صرّة من الملابس في الرّكن الّذي تنام فيه. كانت بزّتها العسكريّة نظيفةً ومرقّعة. فتأثّرت بهذه الحركة حتّى إنّها لم تجد ما تقول، أخذت الملابس بين يديها

واستنشقت الرائحةَ التي أشبعتها بها شمس المرتفعات وانحنت بكلّ إجلال أمام «سايرباو».

حسب «زهوما» فإنّ للتّيبتيّين فصليْن لا غير: الصّيف والشّتاء. ذلك أنّ الرّبيع والخريف لا دوام لهما. لكنّ ذلك الرّبيع كان فصلاً طويلاً في حياة «وين». قضّت عدّة ليال وقد جفا عينيْها الرّقادُ، مُفكّرةً في «كجون»، متسائلةً عن مستقبله لو ظلّ على قيد الحياة. وبدأ يخامرها الشّكّ في كون «زهوما» قد أخطأت حين اعتقدت أنّ بالإمكان الحصول على معلومات تخصّ «كجون» و«تيان آن مان». فقد كانت هي و«زهوما» منشغلتيْن بجهود التّأقلم مع حياة الرُّحَّل فظلّت كلٌّ منهما تعيش في عالمها الخاصّ، ونادرًا ما كانتا تتحدّثان عن الآتي. وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت «وين» تحمل كثيرًا من المودّة للعائلة وخاصّة لـ«سايرباو».

كان وجه «سايرباو» مخدّدًا حتّى ليَعسُرُ تبيّنُ عمرها. لكنّ «وين» تقدّر أنّها في الثّلاثين تقريبًا. امرأة عميقة الهدوء والأنفة، تنجز كلّ أشغالها المنزليّة بتمام الرّضى مهما كانت شاقّة أومنهِكة. تحبّ الحليّ، وترتدي قماشًا نفيسًا حتّى في سائر لأيّام، وتضع عقودًا وأسورة وحِلية من العقيق الأحمر أو من الفيروز أو من الذّهب والفضّة حول الخصر، فتبدو كناقوس متعدّد الألوان. لاحظت «وين» أنّ «سايرباو» لا تستريح إلاّ نادرًا، فهي تسمع رنينها منذ أن تتسرّب أشعّة الشّمس الأولى من تحت الخيمة. أمّا في اللّيل فإن سكتَ رنينها ففي سكوتها ذاك إشارة إلى أنّ أفراد العائلة خلدوا إلى النّوم. تخيّلت «وين» نفسها تعيش مع «كجون»، ينجزان سويًّا جميع الأعمال اليوميّة الّتي تقوم بها

«سايرباو»: الحمل والولادة وتربية الأطفال والعمل معًا في تناغم. وفي اللّيل، حين يخمد آخر لحن من موسيقى «سايرباو»، كانت «وين» ترحل بغتة إلى وحدتها وحنينها، ويغمر وجهَهَا الدّمعُ الصّبيب.

كان «جيلا» يبدو أكبر سنًّا من «سايرباو»، قليلَ الحديث، لكنّه النّاطق بلسان العائلة. وحسب أسطورة شديدة الشّيوع في الصّين فإنّ رجال التّيبت يتميّزون بوفرةٍ في أجسامهم، بيد أنّ «جيلا» كان وسطًا، ليس أطولَ من زوجته، ولا تدلّ سحنتُه على أنّه حييّ ولا على أنّه جريء، لا راض ولا ساخط، لكنّه يعطي انطباعًا بإمكانيّة الاعتماد عليه رغم أنّ إمكانيّة فهمه تبدو صعبة المنال. اكتشفت «وين» أنّ الدّوابّ تُدرك حزمَ «جيلا» وسلطتَهُ، فما من خروفٍ يبتعد عن القطيع وما من جوادٍ يرفض رفع حافره إذا طلب منه ذلك. لقد كان الجميع، بشرًا ودوابَّ، يمتثلون لإشاراتِ «جيلا»، إنّه مثالٌ لربّ العائلة.

ولم يكن «جي آر» دون «جيلا» سنًّا. تساءلت «وين» ما إذا كان أبكمَ، فهو لا يتكلّم البتّةَ حتّى حين يلاعب «هوم» أصغر الأبناء الّذي كان شديد التّعلّق به.

وفي إحدى الليالي قرّرت «وين» أن تجابه العاصفة وتخرج لقضاء حاجة. وحين عادت على أطراف أصابعها، اندهشت كثيرًا وهي ترى «سايرباو» تحت اللّحاف مع «جي آر» يحتضن أحدُهما الآخر، فوقفت برهةً لا تقدر على الحركة تنظر إليهما نائميْن.

منذ أن أصبحت «وين» تعيش مع عائلة «جيلا» تعوّدت، شيئًا فشيئًا، على مُقاسمة الفراش مع الجميع رجالاً ونساء، ولم تستطع

أن تعرف كيف لزوج وزوجة أن يعيشا حياتهما الجنسيّة تحت أنظار الجميع، لكنّها كانت تدرك أنّ شعوبًا كثيرةً عاشت هكذا عدّةَ قرون، ولم يخطر ببالها مُطلقًا أنّ امرأةً في أخلاق «سايرباو» وهدوئها يمكن أن تُقيم علاقةً مع رجلٍ غير زوجها مباشرةً أمام هذا الزّوجِ عينِه. وشعرت برغبة في أن تصرخ في وجهها أنّ مقاسمة العيش مع زوج هو أشدّ الأشياء قداسةً وجَمالاً. لم تصرخ بالطبع ولم تنبس ببنت شفة لكنها لم تستطع النوم ليلتها.

في اليوم التالي ظلّت «وين» متضايقة ممّا اكتشفت، لا تعرف كيف تنظر إلى «سايرباو» ولا إلى «جي آر» وحاولت أن تتجنّبهما. لاحظ الجميع أنّ في الأمر شيئًا، لكنّهم خمّنوا أنّ ذلك من فرط حنينها إلى الدّيار.

وبعد أيّام عادت إلى طبيعتها. ولاحظت أنّ الاثنَيْن حينما يكونان معًا لا يبدو من أمْرِهما شيء. ودّت أن تعرف ما إذا كانا عشيقين حقًّا، لكنّها اسْتَحت من فضولها. لم تعد «سايرباو» في نظرها أنموذجًا للفضيلة، وشعرت بالشّفقة تجاه «جيلا» إذ يسمح بأن تُؤخذ منه امرأته أمام ناظريه. أمّا «جي آر» الّذي كان يعيش في بيت أخيه ويتجاوز حدود الأخلاق الأساسيّة فقد أصبح يبعث في نفسها الإحساس بالقرف.

وفي يوم من الأيّام ورد على الخيمة «مي»، الطّفل الخامس للعائلة رفقة مجموعة من «اللاما «[1] وهم أصحابه في الدّيْر، كانوا في الجبال

(1) لاما: لقب شرقي يطلق على الكهنة البوذيّين للدّلالة على درجتهم الرّوحانية، ويُطلق كذلك على مدرّسي البوذيّة التيبتية.

المقدّسة يجلبون الحجارة الملوّنة الّتي تُطحن في ما بعد دقيقًا وتُستعمل في تلوين الرّسوم المقدّسة. وقد أبلغه بعض الرّحّل أنّ عائلته تنزل قريبًا.

حين أبصر «سايرباو» و«جي آر» هفا إليهما وهو يهتف:
- أمّاه! أبتاه!

ولمّا كان «جيلا» يشتغل بعيدًا عن الخيمة في ذلك اليوم، ظنّت «وين» أنّها أخطأت السّمع، فرصيدها من التّيبتيّة منحصرٌ في كلمات قليلة. لكنّ «زهوما» قالت متنهّدة:
- لا بدّ أنّه يشعر بفقدٍ كبيرٍ تجاه والديْه. فكلّ الأطفال الّذين يلتحقون بالدّير يفتقدون أُسَرهم.
- نعم، من المؤسف أنّ والده غائب، أضافت «وين» بحنوّ.
- ليس هذا بالأمر المهمّ، قالت «زهوما» وهي تبتسم، ففي نظر أطفال التّيبت، جميع الآباء يقوم أحدُهم مقام الآخر.
- ماذا تقصدين «زهوما»؟ تساءلت «وين» مندهشة، هل تعنين أنّ «جيلا» و«جي آر»...

اندهشت «زهوما» في البداية من ردّ فعل صديقتها، ثمّ أدركت ما كانت تفكّر فيه:
- ألم تكوني تعلمين أنّ «جيلا» و«جي آر» كلاهما زوج لـ«سايرباو»؟
- «سايرباو» لها زوجان؟
- أجل. إنّه التقليد في التّيبت. للمرأة أن تكون متعدّدة الأزواج.

أنتِ لم تطرحي السّؤال قَطُّ، فظننتُ أنّك فهمت الأمر أو سمعت الأطفال وهم يتحدثون إليهم.

الآن وقد فهمتْ مسألة «زِني» «سايرباو» شعرت «وين» بخجل من جهلها، فقد اتّخذت منها موقفًا خاطئًا، ولم تذكر لـ«زهوما» أنّ انقباضَ نفسِها كان ممّا رأتْ في بعض اللّيالي.

شعرت «وين» بالخيبة حين علمت أن «مي» ورفاقه اللّاما ليست لديهم أيّ فكرة عن النّزاع بين الصّينيّين والتّيبتيّين، ولم يعترضهم أيُّ جنديٍّ صينيّ. وطلبت من «زهوما»، قبل رحيلهم ما إذا كان بإمكان «مي» أن يترك لها شيئًا من الحجارة الملوّنة. وفي تلك الليلة أخذت منها واحدةً وخطّت بها رسالةً إلى «كجون» على ظهر صورته.

«كجون»، حبيبي

أرجو أن تكون بخير. لا أودّ أن أكتب إلاّ كلمةً واحدة. آسفة. آسفة من أجلك لأنّي لم أعثر عليك بعد. آسفة على نفسي لأنّي لا أستطيع أن أبحث وحيدةً في هذه البلاد. آسفة على «زهوما» وعلى هذه العائلة التّيبتيّة لأنّي لا أملك أيّ وسيلة لشكرهم.

كان لونُ الكتابة بالحجر باهتًا جدًّا، وكانت تبالغ في الضّغط حتى أنّها حفرت الكلمات على وجه «كجون» الباسم. تذكّرت الدّفتر والقلم اللّذين قدّمهما لها «وانغ ليانغ» في «زنغ زهو»، وهما الآن مطموران مع حقيبتها في أحد المعابر الجبلية.. «يمكن *للكتابة أن تكونَ مصدر قوّة*»... هكذا تحدّث «وانغ ليانغ» وتهيّأ لها أنّ خطابها القصير لـ«كجون» قد منحها الشّجاعة لتجابه المحن الّتي تنتظرها.

جعلت زيارة «مي» القصيرة الفتاةَ تفكّر في حياة الأطفال التّيبتيّين، لا بدّ أنّ مغادرة عائلته كانت أمرًا شديدَ المشقّة عليه وهو في هذه السّنّ، ولا شكّ أنّ «سايرباو» شعرت عميقًا بفقده.

أوصتها «زهوما» بألّا تقلق.

- التّيبتيون يتركون أبناءهم يهجرونهم بسهولة. التّيبت برمّته لا يعدو أن يكون ديْرًا كبيرًا. وكلّ العائلات الّتي لها أكثر من ابنين ينبغي أن ترسل أحد أبنائها على الأقلّ إلى الدّير ليكون كاهنًا (لاما)، ويُعتبر ذلك دليلاً على إخلاصهم، وهذا يمنح الأطفال تربيةً ويخفّف عن الأُسَر أعباء مؤونتهم.

تساءلت «وين» ما إذا كان للأطفال التّيبتيّين حقٌّ في الطّفولة. فباستثناء ملابسهم وقبّعاتهم لم تلاحظ أيّ شيء يخصّهم. لذلك طلبت من «زهوما» أن تسأل الطفلة «ني» عن طفولتها الأولى، هل كانت لها أشياء للّعب؟

- أجل. أجابت «ني».

فقد صنع لها «جيلا» لُعبًا كثيرة من العشب أو أذناب الماعز المجفّفة، وصنع لها حيوانات من الخشب لأعياد ميلادها.

أمّا أكبر الأبناء «أوم» فلم يعد طفلاً، إذ يناهز عمره ثمانية عشر عامًا ويقضّي اليوم في العمل صامتًا رفقة «جيلا» و«جي آر». هو لا يُحسن القراءة، لكنّه يضرب بمهارةٍ على العود التّيبتيّ ويتقن الغناء. وفي المساء عند الغسق، بعد أن ينصرف أفراد العائلة كلٌّ إلى شأنه المخصوص كَفَلْيِ الملابس والشّعور أو الاغتسال أو إعداد المضاجع،

كانت «وين» تسمعه يترنّم، دون أن تعرف فحوى أغانيه مُطلقًا، لأنّها عاجزةٌ عن فهم الكلمات، ولكنّها كانت تحدس أنّه يتغنّى بحبّ الرّجل للمرأة، فتُضرم فيها أغانيه الرغبة في لقاء «كجون».

وأمّا كبرى البنات «ني»، وقد أدركت البلوغ منذ فترة قصيرة، فكانت أكثر أفراد العائلة مرحًا، إنّها تشبه تُوَيْجَ زهرة، وهي قادرة على جعل والديها المتجهّميْن عادةً يتلوّيان من الضّحك. لكنّ «ني» كانت تبكي ليلاً في سرّها. في البداية ظنّت «وين» أنّ ذلك جرّاء أحلام مزعجة، بيد أنّها حين حاولت إيقاظها ألْفَتْها صاحيةً. ولم تفهم «وين» كيف للبنيّة الّتي تقاسمها المضجع أن تختلف في ليلها عن نهارها كلّ هذا الاختلاف.. كان هناك نوع من اليأس في عيون «ني». وقد تساءلت «وين» عمّا يمكن أن يُحزن هذه البنت الجميلة كالزّهرة.

وكانت أخت «ني» الصّغرى، وتدعى «باد»، من الهدوء بحيث لا يكاد المرء يشعر بوجودها. بيد أنّها كانت دائمةَ الاستعداد لتقديم العون. فإذا أخذت -إثر العشاء- تدفع بالأغراض لسدّ منافذ الرّيح قامت والدتُها توزّع على أفراد العائلة غطاءً إضافيًّا للّيل، فلا تلبث «وين» أن تسمع عويل الرّياح خارج الخيمة. فتودّ وهي مندهشةٌ من قدرة «باد» على التنبّؤ أن تسأل «زهوما» ما إذا كان لدى البنت فكرة عن مكان «كجون». لكنّها كانت تخشى كلّ الخشية ممّا قد تكشفه، وهي لا تجرؤ على المجازفة بأن تعلم شيئًا يقضي على أملها في لقائه.

أمّا الصّغير «هوم» وعمُره حوالي تسع سنوات، فكان طُلعة، يحبّ الاختلاط بغيره. وكانت «وين» كثيرًا ما تراه صحبة «أوم»

يعلّمه العزف على العود. ذكرت لها «زهوما» أنّ الفتى يتطلّع إلى الالتحاق بالدّير مثل أخويه. فلم تستوعب كيف أنّ طفلاً صغيرًا لم يغادر قَطُّ منزلَ والديْه يرغب في أن يكون كاهنًا. ولاحظت أنّ «هوم» كان يصلّي بخشوع عميق، أعمق ممّا يناسب سنّه. فأدركت أنّ هذا النّضج المبكّر لطفلٍ لا يتجاوز طوله المتر الواحد، قد يكون دليلاً على موهبة روحانيّة حقيقيّة.

كانت «وين» تسجّل كلّ يوم تفاصيل مدهشة عن طريقة عيش التّيبتيّين، وكانت الاختلافات بين عادات القوم والصّينيّين لا تبرح تدهشها. وذات يوم اكتشفت أنّ «جيلا» و«جي آر» هما من يتكفّل بجميع أشغال الخياطة، وليس «سايرباو» من تفعل ذلك. وحين رأت لأوّل مرّة «جي آر» وهو يخيط فستانًا لم تصدّق ما رأت.

- «زهوما»، صاحت تعالي بسرعة! أُنظري! ماذا يفعل «جي آر»؟

لم تفهم «سايرباو» -التي كانت في الجوار- ردّ فعل «وين»: ما الغريب في أن يتولى الرّجال خياطة الملابس؟ شرحت لها «زهوما» أنّ الرّجال الصّينيّين نادرًا ما يلمسون الإبرة، وأنّ الخياطة والرّتق هما من شؤون النّساء.

انخرطت «ني» في الضّحك وهي تستمع إلى ما دار بين «وين» و«زهوما»، وقالت لأمّها:

- النّساء يخطن؟ أمر لا يصدّق.

هزّت «سايرباو» رأسها تشاطر ابنتها الدّهشة.

لقد كانت أصابع الرّجال الخشنة هي الّتي تعتني بملابس كلّ العائلة والفُرُش. وكان «جي آر» خيّاطًا ماهرًا، وعلمت «وين» أنّه هو من خاط جميع الملابس الّتي تمتلكها العائلة والملابس الخاصّة بالاحتفالات أيضًا.

كانت لدى «وين» رغبة في شكر العائلة على حسن الضّيافة وذلك بتقديم العون أثناء الأشغال اليومية. لكنّها سرعان ما لاحظت أنّ هذه الأشغال ليس من السّهل القيام بها حتّى لو كانت «سايرباو» تترنّم بالأغاني أثناء عملها. ففي البدء بدا لها مستحيلاً حلبُ الجواميس، فهو عمل يتطلّب الكثير من المهارة، فلم تظفر من الحيوان بغيرالتّنمّر وهي في حال من الإرهاق والتّعرّق. أمّا صنع أقراص الرّوث فقد بدا لها أكثر يُسرًا، لكنّها سرعان ما اكتشفت أنّ الأمر غير ما ذهب في ظنّها. فقبل أن تجفّف الأقراص لا بدّ من جمع الرّوث، وينبغي أن يُجمع برفش مُحدَوْدَب مخصوص، ثمّ يُنبذ داخل سلّة محمولة على الظّهر، ثمّ يُعجن ويُخبز في شكل أقراص، ويُجَفَّف في حرارة الشّمس قبل أن يُرصَّف بنظام في أكياس، ويُحفظ داخل الخيمة. غير أنّ الرّوث كان يقع عليها عوضًا عن السّقوط في السّلّة. وأمّا جلب الماء فهو عمل بدنيّ لا يتطلّب مهارات مخصوصة، إنّما يقتضي قوّة شديدة، و«وين» لا تكاد تقوى على حمل الوعاء، فتترنّح به في الطّريق.

وكان أشدّ ما ترغب فيه «وين» هو صناعة الزّبدة. وقد ذكرت لها «سايرباو» أنّ والدتها تعتقد أنّ هذا العمل هو الأشدّ على المرأة،

ولكنّه أيضًا موهبة يقدّرونها من أجلها، ذلك أنّ الزّبدة (إلى جانب اليوغرط واللّبن الرّائب اللذّين يصنعان ممّا زاد عنها) تمثّل المحتوى الأساسيّ للوجبات اليوميّة الثلاث.

ويقتضي المخض أن يُحرّك اللّبن مئات المرّات في وعاء من الخشب بذراع خشبيّة حتى ينفصل دسمه عنه. ثمّ يُسْتَخْرَج الدّسم بملعقة، وتُصنع الزّبدة منه. وينبغي أيضًا فصل اللّبن الرّائب عن منزوع الدّسم. ويستعمل اللّبن الرّائب في صنع مرطّب «التّسمبا» الّذي يُقدّم قربانًا في أحيان كثيرة.

في البداية وجدت «وين» الأوعيةَ والطّريقةَ التي يُمخَض بها شبيهةً بالتّجارب الكيميائيّة الّتي كانت تجريها في الجامعة. غير أنّها، بعد أن ساعدت «سايرباو» بضع ساعات، لم تعد قادرة على رفع ذراعها، وفي المساء أصاب الوهن يدَها حتّى صارت عاجزةً عن رفع الطّعام إلى فمها.

كان وجهها يتورّد خجلاً وهي تفكّر في انعدام كفايتها. أمّا دراستها للطّبّ فلم تكن لتفيدها هنا في شيء يُذكر. فالعائلة تعدّ من الأعشاب أدويتها الخاصّة، وهي عقاقير شديدة الاختلاف عن أدوية الطّبّ الصّينيّ. وقد أطلعتها «زهوما» على الفِطر -اليَسروع، ذي المفعول السّحريّ وناب الزّعفران[1] الرّبيعي وفوائده العديدة في العلاج. ففهمت حينئذ السبب الذي جعل «كجون» يتابع درسًا خاصًا في استعمال الأعشاب التّيبتيّة.

---

(1) هو الزّعفران المعروف، له أوراق مذبّبة طويلة تنبت أوّل الربيع أو في الخريف.

وكانت «زهوما» تتألم لذلك أيضًا. فهي تدرك أفضل من صديقتها ما كان ينبغي فعله، لكنّها لم تتعوّد على المشقّة الجسديّة، فيصيبها الإرهاق بسرعة. أمّا «جيلا» فكان لطيفا مع المرأتين ويطلب منهما ألاّ تسرفا في إتعاب جسميهما.

وكانت الفصول الأربعة تتيح للنّاس تغيير مكان التّخييم، وتسمح للجواميس والأغنام بالتّزاوج وتغيير صوفها، وهكذا كان لكلّ يوم ما يكفيه من المشاغل.

وفي أحد الصّباحات هرعت «ني» إلى أمّها لتسرّ لها أنّ الأعشاب -حسب «أوم»- بدأت تبرعم. فأسبلت «سايرباو» جفونها وتشمّمت الهواء كما لو كانت تتنفّس روح الصّيف حدّ الامتلاء، وقالت لـ«زهوما» إنّ «جيلا» قد يقرّر الرّحيل قريبًا في اتّجاه مراعي الصّيف على منحدرات جبالٍ أكثر ارتفاعًا. وها هم من جديد سيرحلون نحو الشّمال. و«وين» مندهشة من كيفيّة تعاملهم مع الأرض، فهم يتنقّلون فيها بما تمليه عليهم الفِطرة. وأدركتْ أنّها حتّى إن توفّرت لها خريطة فلن تكون ذات نفع، فكلّ الجبال والسّهول متشابهة هنا.

كان الحماسُ يغمرهم جميعًا لفكرة الرّحيل الموسميّ الجديد، وأحسّت «وين»- وقد صارت مطمئنّة تمامًا على ظهر الجواد- بموجةٍ من الثقة تسكنها، وانتابها شعور بأنّها ستعثر على «كجون»، وتخيّلته منحشرًا مثلها في ملابس تيبتيّة، يحمل نفسه على العيش ويَجهَد في البحث عن طريق العودة. سعدت بتخيُّلِ لقاءٍ بينهما على صهوة جواد في قطيعٍ من الغنم، وبتخَيُّل لذّةِ احتساء الشّاي بالزّبدة معه تحت خيمة، بينما كانت «زهوما» متعجّبةً من رؤيتها سعيدة.

قادهم السّير الطّويل إلى ما وراء جبال «بيان خار» عند هضاب الشّمال حيث نصبوا خيامهم على منحدرٍ معشوشب. وفي الشّمال شاهدت «وين» قمّةَ جبل شديدِ الارتفاع مجلّلةً بالثّلج. شرح «جيلا» لـ«زهوما» -التّرجمان- أنّ ذاك هو جبل «أمني ماشن»، أعظم الجبال المقدّسة الثّلاثة عشر عند منبع النّهر الأصفر. كان «أمني ماشن» هو الإله الّذي يحكم هذه المنطقة ببحيراتها العديدة المنتظمة حول النّهر الأصفر انتظامَ اللآلئ في سلك. وفي الأزمنة الغابرة، كانت قبيلة «توبو» تسمّي هذه المنطقة «البحيرات المائة»، وما فتئت هذه التّسمية تتواتر لدى القبائل الرُّحّل.

لم يكن الرّجال -طيلة الفترة الّتي قضتها «وين» و«زهوما» صحبة العائلة- يبتعدون عن الخيام أكثرَ من يومٍ واحد، فاندهشت «وين» وهي ترى «جيلا» و«جي آر» يستعدّان لسفر طويل وقد أخذا جواميسَ وخرفانًا، وزوجًا من «الخاطا» الأبيض انتُزعا من المخزون الذي كانت تحتفظ به العائلة للأضاحي.

- سَيَزُوران نَاحِتَ حجارة «ماني» ليحفرا «المانترا ماني» من أجل حماية العائلة من الأرواح الشّريرة ومن أجل الرّفاه. أوضحت لها «زهوما»، ألم تلاحظي أنّنا نمرّ بصخور تحمل كتاباتٍ ورسومًا؟

وكانت «وين» قد تساءلت عمّا تعنيه تلك الكتابات المحفورة على الحجارة والتّلع الصّخرية، بيد أنّها ارتاعت من التّابو التّيبتّي الّذي يقتضي عدم السّؤال عن الدّين، فلم تجرؤ على طرح المسألة.

لكنّها، وهي تتقاسم العيش مع عائلة «جيلا»، كانت تشعر بانجذاب إلى حياتهم الرّوحيّة، وَسَرَّهَا أن تعِدها «زهوما» بحديث آخرَ عن أحجار «ماني» عند وِرْد الماء.

كانت «زهوما» و«وين» منذ حديثهما في غرفة الشّاحنة العسكريّة تتجنّبان التمادي في الحديث عن السّياسة والدّين كما لو أنّهما تخشيان من أن يؤثّر هذا الحديث تأثيرًا سيّئًا في صداقتهما الوطيدة. لكن ها هي «زهوما» تبدو راغبة في تفسير الدّيانة التّيبتيّة لـ «وين» وكأنّها أضحت في الأيّام الأخيرة توليها ثقتها:

- هناك رجال يشعرون بنداءٍ روحيٍّ فيقصدون الجبالَ المقدّسة ليعيشوا فيها، حيث يقضّون سحابة يومهم في انتقاء الأحجار لينقشوا عليها «المانترا ماني». وتقتضي العادة، في حالة الزّواج أو الحداد أو إذا اعتلّ إنسان أو حيوان، أو إذا حلّ خطب بالعائلة، أن يذهب ربّ العائلة إلى الجبال لتقديم القرابين والصّلاة من أجل الحصول على تعاطف الأرواح، فَيَهَبُ جواميسَ وخِرافًا وممتلكات أخرى لناحت الحجارة، أمّا هو فينتقي له إذّاك صخرةً يحفر عليها المقاطع السّتّة «للمانترا» الكبير. ويستعمل الرّسّامون عددا مختلفًا من الخطوط والألوان. والنّاس لا يحملون معهم هذه الصّخور، إنّها رمز لإيمانهم، وهو رمز يمنحهم اطمئنانًا روحيًّا. ولهذا السّبب كثيرًا ما تشاهدين حجارة «ماني» بين الصّخور التي نمرّ بها.

استمعت «وين» إلى شرح «زهوما» بكلّ انتباه:

- يتزايد شعوري شيئًا فشيئًا بأنّ الإيمان يطبع كلّ شيء في التّيبت. النّاس هنا يضعون أنفسهم بالكامل بين أيدي السّماء والطّبيعة. حتّى الجبال والأنهار والنّباتات ينبع منها الإيمان.

- هذا صحيح، كلّ التّيبيتيّين يشتركون في النّزعة الرّوحانيّة نفسها. فنحن منعزلون عن العالم، ونعتقد أنّ كلّ ما يوجد بين السّماء والأرض هو كما ينبغي أن يكون. نؤمن أنّ آلهتنا هي الآلهة الوحيدة وأنّ أجدادنا هم مصدر كلّ حياة في الكون. نحن معزولون عن سيرورة الزّمان. وحين يبذر مزارعونا حبوبهم، فإنّهم يتركون للسّماوات أن تقرّر مصير المحصول. وليس لنا ضيعات زراعيّة، فالمزارعون يتصرّفون كما تصرّف أجدادهم منذ مئات الأعوام بل منذ آلاف السّنين، وكذلك يفعل الرّحّل. والفريقان أي المزارعون والمرتحلون لهما حياة عسيرة شديدة العسر، وعلى الجميع أن يقدّم جزءًا وفيرًا من محصوله ومن قطعانه هبةً للأديرة. إنّها جزيةٌ ثقيلةٌ جدًّا على النّاس الذين لا يملكون إلاّ القليل، لكنْ عليهم أن يُجِلّوا الكهنة لأنّهم يوفّرون الحماية لهم. ويعتقد الناس أنّ «الدّلاي لاما» في جنوب التّيبت و«البنشان لاما» في شماله هما الممثّلان للأرواح الأرفع على الأرض. وحين يرحلان، نطلب انبعاثهما بواسطة صلوات وطقوس مخصوصة.

- الأمر يختلف عن الصّين، فنحن لا نعتبر الدّيانة سلطة، ولا نخضع إلاّ لقادةٍ علمانيّين.

- ولكن من يراقب قادتكم ويحميهم؟ سألت «زهوما» في حيرة.

- الضّمير. أجابت «وين».

- وأيّ شيء هو «الضّمير»؟

- الضّمير ليس شيئًا، إنه ميثاق أخلاقيّ.

- وما الميثاق الأخلاقيّ؟

أخذت «وين» تفكّر. ها هنا سؤالٌ صعبٌ جدًّا. خطر ببالها «كجون» الذي كان يريد أن يجد جوابًا لكلّ سؤال، وردًّا على كلّ جواب، فهل يكون «التّيبت» غيّره هو أيضًا؟

بلغت المرأتان حافّة البحيرة فتوقّفتا لوضع سَطليْهما.

استدارت «وين» نحو «زهوما» وقالت:

- ليس بإمكاني أن أنسى حبيبي «كجون».

هزّت «زهوما» رأسها:

- أنا أيضًا أفكّر في «تيان آن مان»... وما دمنا الآن في فصل الصّيف، يمكن لنا أن نطلب من «جيلا» زادًا وجواديْن... سأسعى إلى مفاتحته في الأمر.

5

تائهة في كينغهاي

عندما عادت «زهوما» و«وين» من البحيرة وجدتا في الخيمة رجلين يحمل كلٌّ منهما بندقيّةً مزوّدة بحربة. ظنّت «وين» أنّهما من أقارب «جيلا» أو ربّما من أقارب «زهوما»، ذلك أنّ رفيقتها هذه سرعان ما انبرت تحادثهما. احتفلت العائلة كلّها بالرّجلين، وهَيَّأتْ لهما قطعةً كبيرةً من لحم الخروف على شرفهما، وكانت رائحة اللحم المصليّ تملأ الخيمة.

وما إن انصرفا حتّى أخبرت «زهوما» «وين» بأنّهما عابرا سبيل يرتحلان ليجمعا الأعشاب الطّبيّة. لم يكن «جيلا» ولا هي على معرفة بهما، لكنّ جميع المسافرين في التّيبت مرحّبٌ بهم لأنّهم يُعتبرون رُسُلاً، وتقتضي التقاليد أن يعاملوا باحترام وأن يُقدّم لهم أزكى الطّعام، وأن يعتني الرّجال بخيولهم، في حين تعدّ النّساء لهم الماء وزاد الطّريق. ولكنْ، لم يكن لدى هذين المسافرَيْن -للأسف- من الأخبار ما قد يفيد «جيلا» ولا «زهوما» ولا «وين».

وفي الصّباح الباكر وفيما كانت أشعّة الشّمس تنشر البهجة في البراري، انصرف كلٌّ إلى مشغله المعتاد كدأبه كلّ يوم، فجمّع الرّجال

الخرفان والجواميس ليقودوها إلى أحد سفوح الجبال بالجنوب، وكانت تلك هي اللّحظة الوحيدة التي تُسمَعُ فيها أصواتُ الرّجال. كانت النداءات التي يتبادلونها وهم يسوقون الدّواب مفعمةً بحماس شديد، فتختلط أصواتُهم بثغاء الدّوابّ وخوارها. انصرفت «زهوما» صحبة «ني» و«هوم» إلى البحيرة وهم يثرثرون ويضحكون كما لو كانت قِرَبُ الماء على ظهورهم ملآى بالسّعادة. شرعت «سايرباو» و«باد» و«وين» في مخض اللبن، وهي مهارة استطاعت «وين» اكتسابها في نهاية الأمر.

فجأةً شاهدت «وين» «باد» في ردهة الخيمة وبصرها مشدود إلى البعيد كما لو كانت مسلوبةَ الإرادة. وحين دعتها والدتها إلى المساعدة في المخض لم تتحرّك، والأغرب أنّها طافت بالخيمة مرّتيْن، غير أنّ «سايرباو» لم يبدُ عليها أيّ قلق من سلوك ابنتها، أمّا «وين» فارتبكت وهي ترى عن بعد «ني» و«هوم» يعدوان دون أن تكون معهما «زهوما».

وحين بلغ الولدان مستوى الخيمة كانا ينتحبان. رأت «وين» «سايرباو» وقد امتقع وجهها. استمعتْ إلى روايتهما ثمّ خرجت مسرعةً مناديةً «جيلا» و«جي آر» و«أوم» بالإشارة. ظلّت «وين» على قلق تنتظر وصول الرّجال لتفهم ما حصل. فكان كلّ ما حصلته من تلعثم الأطفال هو كلمة «زهوما» تتردّد بلا انقطاع.

بعد مُضيّ وقتٍ بدا لها ساعات وصل الرّجال أخيرًا، وأنصتوا إلى الأطفال، توسّلت إليهم «وين» بالإشارة أن يشرحوا لها ما يقال. فانبرى «جي آر» -وهو أكثرُهم فهمًا لها على ما يبدو- يطرح قبضةً

من دقيق الشّعير على لوح يُستعمل عادةً لدبغ جلود الخرفان، ورسَم بعض الأشكال بعقلة إصبعه: جماعة من الرّجال على ظهور الخيل ألقوا كيسًا على رأس «زهوما» وحملوها. ولّما عادت «وين» من دهشتها سألت «ني» -وقد تمكّنت من فهم ما يحدث- ما إذا كانت قد لاحظت شيئًا. فأنزلت «ني» كُمّ فستانها لتريها خدوشا كبيرة على كتفها اليمنى، وأخذ «هوم» كفّ «وين» ووضعها على رأسه ليجعلها تتلمّس حدبة كبيرة. لقد أُصيبَ الولدان وهما يقاتلان الخاطفَيْن، ولم يكن لـ «وين» أدنى فكرة عن الدّوافع الّتي قد تجعل أحدهم يرغب في اختطافها. كان أمرًا لا يُصدّق، إلّا أن يكون عدوًّا لا علم للفتاة به أو أن يكونوا جنودًا صينيّين.

قضّت «وين» يومها تستجوب «ني» و«هوم»، مستعينةً بطاقة الحركات والرّسوم والأشياء آملةً في الحصول على تفاصيل ما حدث. فبدا الأمر على هذه الصّورة، عندما كانت «زهوما» والولدان في طريق العودة جالبِينَ الماء، اقتربت الجماعة منهم وأمسكوا بـ«زهوما» بواسطة أنشوطة كما يُمسَك بحصان، ووضعوها مكبّلةً في كيس من القماش من الصّنف الذي تُقدّم فيه القرابين. وقد فهم الطّفلان ما يقول المعتدون، فهُمْ إذن تيبتيّون، وربّما كان من ضمنهم ذانك الرّجلان اللّذان زارا العائلة بالأمس. ذكرت «ني» أنّ «زهوما» ظلّت تقاوم حتى بعد أن وضعوها على ظهر الجواد. وتذكّرت «وين» السّلوك الغريب لـ «باد» ذاك الصّباح، فهل رأت شيئًا أو استشعرت بحدوثه؟ حاولت أن تسألها ما إذا كانت تعرف مكان وجود «زهوما» في ذلك الوقت، فاكتفت البنت بهزّ رأسها نفيًا.

وفي اليوم الموالي قضى «جيلا» و«جي آر» ساعاتٍ في استطلاع المناطق المحيطة بحثًا عن أثر لـ «زهوما» ومختطفيها، لكنّ هؤلاء اختفوا دون ترك أيّ علامة. وفي المساء عاد الرّجال منهكين. فأدركتْ «وين» من نظراتهم أنّهم فقدوا كلَّ أملٍ في العثور على الفتاة، وأنهم يشفقون عليها لأنّها أصبحت وحيدةً تمامًا، غير قادرة على التّخاطب مع أيٍّ كان.

وحين أفسح الصّيف موقعًا للخريف، دخلت «وين» في أشدّ مراحل حياتها قتامةً. ففي اللّيل كانت تنتحب على المرأة الّتي بات فراشُها قربها خاليًا، تنتحب وهي تتذكّر شجاعتها وذكاءها. وفي النّهار كانت تجتهد في تدبّر أمرها دون حضور ترجمانها «زهوما». وكانت الجمل القليلة الغريبة الّتي لقنتها إياها «زهوما»، كبعض الأسماء والأفعال، تمكّنها من قضاء شؤونها اليوميّة، وعدا ذلك، فإنّها تظلّ في ما يبقى لها من الوقت، معزولةً في عالم من الصّمت. والأدهى من ذلك أنّ حظّها قد تضاءل في تعلّم مزيدٍ من اللّغة التّيبتيّة، فعائلة «جيلا» تعيش في نوع من التّخاطب الصّامت، وحتّى عندما يريدون الكلام، فإنّهم قليلا ما يفعلون. إنّها عاجزةٌ عن التحدّث بلُغتهم، فكيف يمكنها إقناعهم بتركها ترحل وحيدةً في مرتفعات التّيبت؟ وما عدا صورة «كجون» لم يكونوا يعرفون شيئًا عن زوجها. وقد نصحتها «زهوما» بألاّ تحدّثهم عن وجود الجيش الصّينيّ في التّيبت، لأنّهم لن يفهموا أسباب ذلك، بل إنّهم سيرتاعون من الأمر كلّ الرّوع. فهل ستقدر على أن تعترف لهم بأنّها تحبّ زوجها إلى درجةٍ تجعلها مستعدّةً لمجابهة كلِّ خطبٍ في سبيل العثور عليه؟ وبدأ الأسى

واليأس يستنزفانها كما لو كانت على وشك العثور على «كجون» حتّى رأته يختفي من جديد.

بعد حادثة الاختطاف بدت العائلة وكأنّ القلق قد استحوذ عليها. فقد نضبت ضحكات «ني»، أمّا «هوم» الّذي كان مفعمًا نشاطًا فقد لزم أمّه صامتًا لا يرتع حول الخيمة ولا يمرح. وحين أزف الرّحيل نحو مراعٍ أخرى، اختار «جيلا» مكانًا أشدَّ عزلةً. فكانوا إذا رأوا شبحًا يلوح من بعيد، أشار «جيلا» على عائلته بعدم الظّهور. بل إنّه أخفى «وين» ضمن قطيع الخرفان، مرّةً أو مرّتيْن، حتّى لا يراها بعضُ المسافرين، كما لو أنّه كان يخشى من أن تُخطف هي الأخرى. أمّا هي فكانت تشعر بأنّها لم تعد تنتمي إلى عالم البشر.

أخذت «وين» تدوّن يومياتها. مستعملةً في كلّ يوم حجرًا ملوّنًا لتخطّ بعض السّطور على إحدى صفحات «المقالات التّامّة» لـ«ليان قشيكيو». كانت الأحجار تترك أثرًا باهتا على الورق، وكان على «وين» أن تضيّق ما بين الكلمات وتختصر العبارة للاقتصاد في الفضاء. فاليوميّات وسيلتها الوحيدة لتدوّن أفكارها ووسيلتها الوحيدة لتستمرّ في الكتابة بالصّينيّة، وهي الّتي تمنحها الطّاقة المتجدّدة وإرادة البقاء.

ذات صباح فقدت «ني» وعيها حين كانت تساعد والدتها في الحلب. طلبت «سايرباو» النّجدة بصرخات عالية. حمل «جيلا» الفتاة وأدخلها الخيمة. وقال لـ «جي آر» في اضطرابٍ واضحٍ شيئًا مّا لم تفهمه «وين». فخرج على الفور وانبرى يُسرج الجواد. ثمّ

غمغم ببعض الكلمات لـ«سايرباو» فطفقت تضع الماء على الفرن لتغلّيه. استعانت «وين» بجميع ما تعرف من الكلمات التّيبتيّة لتقول لـ«سايرباو» إنّها طبيبة (منبا)، وإنّ بإمكانها تقديم المساعدة. لكن لم يبدُ عليها أنّها فهمت. وفجأةً صرخ «هوم» وهو يشير بإصبعه إلى أسفل جسد «ني»، وتبعه الجميع بأنظارهم حيث يشير: كان الدّم يرشح من فستان البنت. أمر «جيلا» «باد» بإخراج «هوم»، ثمّ أومأ إلى «وين» أن تساعده على نزع فستان الفتاة، فكانت ملابسها الدّاخلية ملطّخةً بالدّم.

أدركت «وين» سبب بكاء «ني» ليلاً. لا بدّ أنّها كانت تنزف هذا النّزفَ منذ زمن بعيد. وتذكّرت قول «زهوما» إنّ أشغال جلب الماء مُهلِكة إلى حدّ أنّ النّساء قليلاً ما كنّ يغسلن الملابسَ، وكنّ يجتهدن كيفما اتّفق لتجنّب لطخات الطّمث. لكنّ نزيف «ني» لم يكن مجرّد طمث، وقالت «سايرباو» متحدّثة بالإشارة إنّهم على علم بالموضوع منذ فترة طويلة، لكنّهم كانوا عاجزين أمام الأمر.

غمس «جيلا» قطعةً من اللّبد في الماء السّاخن، وعصرها، ثمّ نفث فيها بفمه مرّتين شيئًا من جعّة الشّعير، وعصرها من جديد. ثمّ اتّجه إلى تمثال بوذا يبتهل إليه. إثر ذلك لفّ قطعة اللّبد على قدميْ المريضة، ونفث من جديدٍ جُرعةً من الجعّة على جبينها. افترّت شفتا «ني» وفتحت عينيْها قليلاً، ونظرت إلى أمّها وهي تدير طاحونة الصّلاة عند المذبح. نادى «جيلا» زوجته فأمسكا بيد ابنتهما، فابتسمتْ ابتسامةً خفيفةً ثمّ أغمضت عينيْها. جسّت «وين» نبضها، فوجدته خافتًا والفتاة يستمرّ نزيفها. ورغم ذلك لم يكن بوسع «وين»

أن تفعل شيئًا لإنقاذها في غياب التّجهيزات الطّبّيّة والأدوية، فانتابها الإحباط والإحساس بالذّنب.

ظلّت العائلة بأسرها طيلة اليوم حذو «ني»، وجميعهم متلفعون بالصّمت. بل إنّ الجوع استبدّ بـ«هوم» فراح يمتصّ أصابعه، ثمّ غرق في صمتٍ مطبق. أمّا «سايرباو» و«جيل» فقد جثيا يصلّيان أمام تمثال بوذا.

عند الغسق أعلن وقعُ حوافر جواد يعدو عن رجوع «جي آر». كان يحمل كيسًا عجّلَ الرّاشدون بفتحه، وخلطوا الدّقيق الذي فيه بماء وسَقَوْه المريضةَ. كانت «وين» تنظر فاغرةً فاها، لكنّها لم يكن لديها أدنى فكرة عمّا يمكن أن يحتوي ذاك المشروب. وبعد عشر دقائق لاحظت «وين» أنّ وجنتي «ني» استعادتا بعض التّورّد.

لم ينم أحدٌ ليلتها. أشار «جيلا» إلى «وين» المرهقة بأن تنصرف للاستراحة. وحين تمدّدت بلغها صوت طواحين الصّلاة يتردّد حتّى مطلع الفجر.

لم يستطع أحدٌ أن ينقذ «ني» الجميلة. لقد رحلت روحُها بعيدًا.. وماتت في اليوم التالي، وعمرها لا يتجاوز البتّة أربعة عشر عاما. كانت «وين» مُرْهَقةً أشدّ الإرهاق وهي تتألّم من أجل مضيّفِيها ومن أجلها هي أيضًا. فقد كانت أكثر أفراد العائلة ملازمةً لها وأقربهم منها، وأشدّهم إيناسا، وها هي تفقد «زهوما» و«ني» في فترتين متقاربتَيْن. أحسّت كأنّ الزّمن ينبسط أمامها هوّةً بلا قرار.

خشيتْ «وين» أن تعمَد العائلة إلى تنظيمِ جنازةٍ سماويّةٍ. وكانت

«زهوما» قد وصفت لها كيف قُطِّعَ جسد والدها بعد موته، وتُرك في البرّيّة للكواسر، على مذبح في الجبل. وأمام ردّة فعل «وين» المرتعبة، ردّت رفيقتها بأنّ ذلك الطّقس لم يكن سوى إبراز للتّناغم بين السّماء والأرض، وأنّه ليس فيه ما يشين. ولكنْ، رغم شروح «زهوما»، لم يكن لـ«وين» القدرة على رؤية جسد «ني» يعطى للكواسر. ومن أجل ذلك، عدلت العائلة عن الأمر، وحُمِل الجثمان الصّغيرُ إلى البحيرة في جنازة مائيّة.

تحوّل الخريف شتاءً، والشّتاء ربيعًا، وفقدت «وين» كلّ إحساسٍ بالزّمن. كانت تتّبع العائلة وهي ترتحل في طلب مراعٍ جديدة وملاجئ جديدة، وتدوّن في كتابها -ما استطاعت- رسائلَ إلى «كجون» تصف فيها تفاصيل أيّامها وترجو أن يتسلّمها يومًا. كانت الكلمات تتراكم، وحين امتلأت الصّفحات البِيضُ من كتاب «المقالات» صارت تكتب بين السّطور، فامتلأت تلك الفضاءات فكتبت على سطور النّصّ المطبوعة. ولم تترك إلاّ قفا الغلاف، الفضاء الوحيد الّذي ظَلّ أبيضَ، فقد كانت تحتفظ به لـ«كجون»، ليكتب فيه -حين تلقاه- خاتمةً ليوميّاتها. أخذت صورة «كجون» بالاصفرار، واتّخذ الوجه سِحْنةً منطفئة ذات تجاعيد.

وأمام عجزها عن التّحرّر من وضعها، كفّت «وين» عن التّفكير في أمرها. وكان جسدها وعقلها قد تكيّفا مع نمط العيش التّيبتيّ، فلم تعد تولي اهتمامًا لحاجاتها ورغباتها. وحين تصلّي العائلة، كانت تصلّي معها وهي تدير طاحونة الصّلاة الخاصّة بها، مُضيفةً إلى التّراتيل كلمات «وانغ لينغ»: «إنّ البقاء على قيد الحياة نصرٌ.. في حدّ ذاته».

كانت المناسبة الوحيدة التي تتّصل فيها -ما تيسّر لها- بالعالم الخارجيّ هي حفل «وايسنغ» حيث يجتمع الرّجال خريفًا آتين من كلّ حدب وصوب ليقدّموا قرابينَ لأرواح الأجداد.

ولّما كان يُحْظَرُ على النّساء حضور الحفل، فقد كانت «وين» تقفُ على الرّبى، مع «سايرباو» و«باد» و«هوم»، لمشاهدة مئات الفرسان وهم يحملون الرّايات ذات الألوان الزّاهية، ويتحرّكون في جماعات طقوسيّة حول مذبح الأضاحي. يقدّم «جيلا» لـ «سايرباو» حُليًّا تضيفها إلى الحليّ الكثيرة التي تتزيّن بها. في البداية لم تدرك «وين» كيف تنفق العائلة في سبيل مثل هذه الكماليّات كلّ ذاك الإنفاق، بدلاً من شراء المواشي، ثمّ تبيّن لها لاحقًا أنّ هذه الحُليّ لم تكن تعتبر ثراءً ماديًّا، بل كانت في الحقيقة رموزًا دينيّة.

لم يكن متاحًا لـ«جيلا» و«جي آر» أن يشهدا حفل «وايسانغ» كُلَّ حَوْلٍ، لكنّهما كانا يشهدانه متى تيسّر لهما. لذلك حين رأتهما «وين» يُسرِجان جواديْهما سكنها الفزع، فقد كانت أمتعتهما تدلّ على رحلة طويلة. ولم تفهم كيف لهما أن يتركا النّساء والأطفال دون حراسة. حاولت «باد» أن تشرح لها. فقلّدت والدها في طريقة الشّرح. وجعلت ترسم لـ«وين» في دقيق الشّعير، بواسطة أواني الفطور، ثلاثَ شموس مزدانة بأواني الطّعام: واحدة للفطور وأخرى للغداء وثالثة للعشاء. وتحت الشّمس الوسطى، رسمت ثلاثة رجال، فاستنتجت «وين» أنّ الرّجال يبلغون غايتهم عند الزّوال ولن يتجاوزوا ذلك الزّمن. لكنّها ظلّت على قلق.

بعد يومين، أمرت «سايرباو» الأطفال بارتداء ملابس الاحتفال،

وأخرجتْ حزامًا حريريًّا عريضًا مُرصّعًا وعقدته حول خصر «وين».
ثمّ ربطوا الدّوابّ بحبالٍ من وبر الجاموس، وأحكموا غلق الباب وامتطوا دوابّهم.

بعد مسير ثلاث ساعات، توقّفوا للأكل، وفجأةً أشار «هوم» بإصبعه وهو يضحك ويصرخ.. من بعيد.. كان يمكن تبيّن عددٍ كبيرٍ من الرّجال والرّايات وهي تخفق في النّسيم، وتختلط بحفيف البيارق المرشوقة في الأرض. كانت كلّ الأشياء تبدو وكأنها أمواجٌ من الألوان والحركات. وكان يغمر السّاحةَ دخانٌ، ويغمرها عبقُ الصّنوبر المحترق بالنّار المقدّسة، ويغلّفها بغشاء متلألئ. خُيِّلَ إلى «وين» أنّها في عالم آخر، غير هذا العالم.. فبعد شهورٍ طويلةٍ من الحرمان والعزلة.. بدا لها الزّحام والألوان والأصوات كأنها السّراب.

وبمرور الأعوام اعتادت «وين» على هذه الحفلات الدّينيّة المميّزة، واعتادت أيضًا على شحّ الأخبار عن العالم الخارجيّ. التّغيّر الوحيد الطّارئ الّذي جاءت به احتفالات «وايسنغ» هو إحضار زوجة لـ «هوم» إثر اتّفاقٍ أُبرم أثناء الحفل بين العائلتين. كانت «موالا» في طباعها شبيهة بـ«سيبرباو»، قليلةَ الكلام ولكنّها هادئة، مثابرة على العمل ودائمة الابتسام. وكان «هوم» يواصل العزف على العود أمام الخيمة كلّ مساء، لكنّ ألحانه باتت أكثر انشراحًا من قبل.

وما هي إلّا أيّام بعد الزّواج حتّى ظهرت على «موالا» علامات الحملُ. وفُصِل خروفان عن القطيع، ورُبطا عند الخيمة. وفهمت «وين» أنّهما سَيُسَمَّنَانِ لتغذية «موالا» حين تضع مولودها، وللاحتفال

بقدومِ عنصرٍ جديدٍ ضمن العائلة. وعندما رأت «جيلا» و«جي آر» يضعان بين يدي «هوم» رضيعةً متينة، عرفت في تلك اللحظة أنّها قد انفصلت عن هُويتها كطبيبة وامرأة صينيّة.

في تلك اللّيلة، أثناء المأدبة أعطت «سايرباو» لـ«وين» فخذًا مشويًّا جيّد الإعداد. وحسب ما أخبرتها به ذاكرتها فإنّ ذاك الجزء من الحروف مخصّصٌ في العادة لـ «جيلا» و«جي آر»، وهكذا فهمتْ أنّ ما فعلته «سايرباو» يعني تأكيد انتمائها إليهم..إنّكِ الآن منّا، وعليك مشاطرتنا أفراحنا.

* * *

حين بلغت «شو وين» هذه المرحلة من حكايتها، كنّا قد قضينا في الحديث عشر ساعات، وكان النّاس يدخلون محلّ الشاي ويخرجون منه.. ملأ النّادل، وهو صاحبُ المحلّ على ما يبدو، أكوابنا بالماء السّاخن أكثر من مرّة. وحلّ اللّيل فاقترحتُ على «شو وين» أن نتقاسم غرفةً في الفندق لنستأنف غدًا حديثَنا. فقبلت بالنّبرة الموجزة نفسها، تلك النّبرة التي توخّتها في الإجابة عن كلّ أسئلتي. أمّا إذا لم تكن مستغرقة في حكايتها، فإنّ صوتها يبدو مسطّحًا وجافًّا.

وحين كنا نستعدّ للنّوم حاولتُ أن أستدرجها للكلام، لأعلم ما إذا كانت مستريحة في فراشها، لكنّها لم تقل شيئا:

- هل تريدين ماء؟ سألتها.
- كلاّ!
- ألا تناسبك الغرفة؟

- بلى!

- هل أنتِ بخير؟ يبدو عليك الإرهاق.

- أنا بخير.

كنت أخشى ألاّ يلائم الفراشُ الضّيّقُ جسدَها الضّخم، وها هي تفاجئني مرّة أخرى. فقبل أن تنزع لباسها التّيبتيّ، أخرجت منه أغراضها كما يُخرج السّاحر حمامة من قبّعته. أخرجت كتبًا ونقودًا من جيوبها الدّاخليّة ومن جيب الكمّ أظهرت أكياسًا من جلد الخروف، ومن حذائها الأيمن سكّينا ومن الأيسر وثائق، وغمست يدها في حزام فستانها فأخرجت حقيبتين من الجلد، ثمّ حلّت حزامها الحريريّ العريض وقد عُلّقت به أدوات وأكياس أخرى من الجلد.

كنت أتأمّلها مندهشةً: كان فستانُها حقيبتَها، وتبيّن لي أنّه يصلح أن يكون فراشًا أيضًا، فقد بسطته مثل حشيّة، ووضعت الحزام الحريريّ فوق الكتاب والأوراق لتكون وسادة، ثمّ حشرت جميع أغراضها في كمّي القميص عدا السّكّين الّذي وضعته على الوسادة في متناول يدها، ثمّ استلقت على القميص، وأدخلت طرفَيْ الكمّين تحت الوسادة، وغطّت ساقيها بالكيسين الكبيرين الفارغين. وهكذا صار جسدها وأغراضها في مناعة تامّة.

لا أتوقّع أنّها تفطّنت إلى دهشتي حين استلقيتُ على الفراش المحاذي لسريرها. وخلتُني أكتشف بعض ملامح الحياة التّيبتيّة الّتي سأَخْبرُها حين أرحل إلى «كينهاي» سنة 1995 في سعيِ إلى فهم ما عاشتْه «وين». سأكون شاهدةً على كرم الشّعب التّيبتيّ الّذي تمكّن

من أن يحيا بوسائل قليلة جدّا، وسأشاهد الحجارة المرصوفة لتكون علامات استدلال، وسأرى الزّادَ المدفون تحت التّراب المتجمّد يُستخرَج لاحقًا أو ينتفع به مسافرون آخرون، وسألحظ خشبَ التّدفئة المخزونَ تحت الصّخور. سأدرك أنّ الكيسيْن الكبيرْين اللّذين بسطتهما «وين» كانا مخصّصين لحفظ زاد المسافر من دقيق الشّعير واللّحم المجفّف.

لم أنم تلك اللّيلة في «سوزهو» نومًا عميقًا. وانتظرتُ بفارغ الصّبر أن ينبلج النّهار لأطرح على «وين» بعض الأسئلة الّتي ألحّت على خاطري: «هل وجدتِ كجون»؟ هل علمتِ ما حصل لـ«زهوما»؟ كيف تمكّنتِ من الحفاظ على توازنكِ الذّهنيّ والجسديّ طوال هذه السّنوات؟ في أيّ ظروف عدتِ إلى الصّين؟

لم أصادف أبدًا إنسانًا فقدَ صلته بالعالم إلى هذه الدّرجة. فحين كانت «وين» تروي حكايتها، كانت شديدة الاضطراب كلّما تعلّق حديثُها بتاريخ مّا، ذلك أنّ حياة الرُّحّل تقوم على الفصول لا على السّاعات والتّقاويم، لذلك لم يكن ميسورًا أن تعرف على وجه الدّقّة كم مضى عليها من الزّمان مع عائلة «جيلا». لكنّها أشارت إلى أنّ «هوم» كان له من العمر تسع سنين تقريبًا عندما حلّت بها، وبات رجلاً راشدًا حينَ غادرت. وهذا يعني أنّها صَحِبَتْ العائلة عشر سنين على الأقلّ وربّما فوق ذلك بكثير.

فكّرتُ وأنا أتقلّب في فراشي ذات اليمين وذات الشّمال: «إلى أيّ حدٍّ يمكن لنمط العيش هذا أن يغيّر شخصيّة المرء؟ وإلامَ يصير؟».

6

الجبال المقدّسة

ظلّت «وين» طيلة الأعوام الّتي قضّتها مع عائلة «جيلا» متشبّثةً بفكرة أنّها و«كجون» سيجتمعان. ورغم أنّها -شأنها شأنُ التّيبتيّين المحيطين بها- اتّخذت نمط حياة البوذيّين على أكثر من صعيد، راضيةً بمصيرها، ظلّ شيء من ذاتها يرفض الإقلاع عن الطّلب. وبتقدّمها في امتلاك اللّسان التّيبتيّ أصبحت قادرةً على التحدّث بشكلٍ أكثر سلاسة، وحاولت أن تفسّر مشاعرها للعائلة. وكان «هوم» أوّل من حدّثته عن «كجون». لقد تعاظمت الرّوحانيّة القويّة الّتي لمحتها عند الطّفل بمرور الأعوام، وبدا أنّ بإمكانها أن تفضي له بأسرارها. أخرجت من جيبها صورة «كجون»، وهي تتذكّر أنّها قد أفزعته حينما كان صبيًّا، وعرضتها عليه. قائلة:

- هذا الرّجل هو حبيبي، شمسي وقمري.

أصبح «كجون»، شيئًا فشيئًا، جزءًا من الحديث، وصارت العائلة تستمع إلى «وين» باهتمام، وهي تروي حياتها السّابقة في الصّين. وكانت «باد» على الخصوص وقد غدت الآن امرأةً شابّةً متلهّفةً لأدقّ معلومة عن عالم الشّرق الضارب في الاختلاف. وحلّ اليوم الذي كفّت فيه «وين» عن الحلم. أقبل «جيلا» نحوها،

وأعلمها أنّ العائلة قرّرت مساعدتها في بحثها، فقد أضحى «هوم» في سنّ تتيح له مساعدة والده، وكذلك «جي آر» على استعداد لتقديم العون. ورغبت «باد» هي الأخرى في الانضمام. قبل «جيلا» بذلك لأنّ موهبتها الغريبة في التّكهّن قد تفيد «وين». وعزم على تزويدهم بثلاثة أحصنة ومؤونة تكفيهم بضعة أيّام، حتّى إذا نفدت لجؤوا إلى كرم التّيبتيّين أو إلى الأديرة.

عندما علمت «وين» أنّ العائلة مستعدّة لتنقسم نصفين من أجل مساعدتها بكت وأعوزها الكلام، لم تجد من الكلمات البليغة ما يعبّر عن امتنانها. فالعائلة لم تنقذها من الموت فحسب، بل اعتبرتها فردًا عزيزًا قريبًا منها طوال سنوات. وعندما رأت «سايرباو» دموعَ «وين»، أخذت يدَها في صمتٍ وداعبتها بحنان. أحسّت «وين» بخشونة كفّها. فقد كبرت «سايرباو» وبهتت ألوان ملابسها واكفهرّ حليّها، لكن ما فتئ وجهُها مُشرقًا.

كان الفراق مشهودًا. نظر كلٌّ من «جيلا» و«سايرباو» إلى «جي آر» يحمّل الجياد. وكانت «سايرباو» قد أعدّت أكياس الطعام وقِرَبَ الماء. وجُهِّزَت لهم خيمةٌ وفُرُش وحبال وعقاقير.

أمسك «هوم» برسن الجواد لتتمكّن «وين» من الرّكوب، وهمس لها في رقّة بأنّه كان يعلم حقيقة حبّها لـ«كجون» لأنّ الآلهة كانت بالنّسبة إليه كالشّمس والقمر.

حين استأذنت «سايرباو» للرّحيل، نزعت «وين» عقد العقيق الّذي أهدته «زهوما» إيّاها ووضعته على ذراعها مع البذلة العسكرية

البالية الّتي لم تلبسها قطّ. وتتالت في ذاكرتها صُورٌ لوجه «ني» لن تنساها أبدًا أينما حلّ بها التّرحال، لن تنسى تلك البنت الشّبيهة بجُلجلٍ جميلٍ، ولا حُبَّ عائلتها لها.

عند الاستعداد للسّفر طلبت «باد» من «جي آر» أن يزور نحّاتي حجارة «ماني» المستخرجة من الجبال المقدّسة، إذ تختلف إليهم فئاتٌ عديدة من النّاس الرّاغبين في تقديم القرابين للآلهة، وربّما كانوا يعلمون شيئًا من أمر الصّينيّين الّذين عبروا المنطقة في السّنوات الأخيرة. واستحسن الرّجل الفكرة: من هنالك سيبدؤون.

مرّت شهور ولم يُفض بحثُهم إلى شيء. زاروا الجبال واحدًا واحدًا، لكنْ لا أحد من ناحِتي الحجارة كان التقى بصينيّ، ولم تتمكّن «وين» من التقاط أدنى خبرٍ عمّا حلّ بجيش التّحرير الشّعبيّ في تلك المنطقة من التّيبت.

وكانت تسأل من يعترضها:

- هل انتهت الحربُ؟

فيكتفون بالنّظر إليها مستغربين، ولا يحيرون جوابًا.

ثمّ بلغهم ذات يوم أنّ رجلاً عجوزًا من ناحِتي الحجارة يتذكّر أنّه التقى بصينيّين. ظلّت «وين» و«باد» تنتظران، في حين صعد «جي آر» الجبل ليتحدّث إلى الرّجل. وحين عودته روى لهما بتأثّرٍ أنّ ناحِتَ الحجارة شاهدَ من سنوات خلت رهطًا من التّيبتيّين يمرّون وضمنهم صينيّون، وكانوا مسلّحين ببنادق ذات حراب، وعلى ظهر أحد الجياد قماشٌ فيه شيء يتخبّط، وتوقّع الشّيخ أنّه يحتوي حيوانًا حيًّا. وذكر أنّ

هؤلاء كانوا متجّهين إلى الشّمال الشّرقيّ.

نظرت «وين» و«باد» إلى «جي آر» مندهشتَيْن، فهل يكون أولئك هم خاطفو «زهوما»؟ كان من رأي «وين» أن يتوجّهوا هم أيضًا إلى الشّمال الشّرقيّ، فربّما عثروا على أخبار أوفر. لكنّ «جي آر» لم يكن يرغب في التخلّي عن أثر «كجون». وحينئذ رفعت «وين» عينيها إلى سماءٍ عميقةِ الزّرقة ويدها على صورة «كجون» في جيب صدرها وقالت:

- «زهوما» أنقذتِ حياتي، ونحن الصّينيّين نرغب في دفع ديوننا..وأظنّ أنّ «كجون» لو عَلِمَ بالمسألة لرغب في أن أبادر في طلب «زهوما» قبل كلّ شيء.

كانت طريق الشّمال الغربيّ تمرّ عبر سلسةٍ شديدةِ الانحدار من الجبال تهبّ فيها الرّياح. ولم يكن بإمكان «جي آر» و«وين» أن يقطعا الجبال المكلّلة بالثّلج إلاّ خلال الصّيف. فكان عليهما أن يقضّيا الشّتاء في السّهل. وهكذا ظلاّ الشّتاء كلّه في الخيمة يسترجعان طاقتهما. وكان «جي آر» يصيد الغزلان وأنواعًا أخرى من الوحوش ويجمع بعض النّبات الصّالح للاستهلاك. وأحيانًا يفسّر للمرأتين كيف تميّزان جذور النّباتات المستعملة في التّطبيب لأنّها ما تزال طازجة رغم الجليد.

في الرّبيع انطلقوا. كانوا يسيرون عدّة أيّام في صمتٍ يكاد يكون مُطبقًا، منشغلين بقيادة جيادهم في مسالك وعرة. وكان زادُهم إلى نفادٍ وماؤُهم إلى نضوبٍ حين بدت لهم في أحد الأيّام خيمة. استقبلت

عائلةٌ من الرُّحّل المسافرين المرهقين بحفاوة، وظلّوا في ضيافتها يوميْن وليلتيْن. وكان معاش هذه العائلة مختلفًا تمام الاختلاف عن معاش «جيلا» وعائلته، فهي تملك عديد الآلات نصف-الآليّة، تستعين بها في الشّؤون اليوميّة والأعمال الفلاحيّة. كانوا يملكون درّاجةً، وجرّارًا أيضًا. وبيّن لهم ربّ العائلة أنّهم اقتنوا كلّ ذلك في السّنين الأخيرة من الشاحنات-المتاجر التي تجوب هذه النّاحية من بلاد التّيبت.

- متاجر يديرها صينيّون؟ سألت «وين».
- كلاّ...بل تيبتيّون.

كان «جي آر» مندهشًا من هذه الآلات، يحاول معالجتها في حذرٍ، دون أن يكفّ عن طرح الأسئلة:

- بأيّ شيء تتغذّى هذه الأشياء الحديديّة؟ وماذا تصنع ليلاً؟ هل تغضب أحيانًا؟ هل يمكن استعمال الدرّاجة في الجبال؟ وكم قطعةً من السّماد يمكن للجرّار أن يسحب في المرّة الواحدة؟

لم تعهد «وين» في ما مضى «جي آر» ثرثارًا.

وقبل الرّحيل سألهم مضيّفهم ما إذا كان بإمكان نجله «زاوانغ» الرّاغب في الاتّجاه إلى الشّمال أن يرافقهم. لم يكن «جي آر» راضيًا عمّا تؤول إليه الأمور، ولذلك فإنّ انضمامَ رجلٍ آخر، شابٍّ وقويّ، إلى الفريق، يعني أنّ المصاعب اليوميّة ستتيسّر.

أدخل حضور «زاوانغ» في القلوب البهجة، وخفّف من رتابة السّفر. وكانت «باد» على الخصوص تبدو رائقة، فلم ترها «وين»

من قبلُ طليقةَ اللّسان جذلى على هذا النّحو. وكان «جي آر» و«وين» يتبادلان النّظر والابتسام عند رؤية الشابّيْن معًا.

كان «زاوانغ» يرغب في الذّهاب إلى دير «وينشوغومبا» الشّهير لرؤية أخيه الأكبر الكاهن، فهو لم يلتق به منذ عَقْدٍ من الزمان، لأنّ إدارة الدّير منعت العائلة من لقياه خلال تلك الفترة. وكان عليه أن يصرف كلّ اهتمامه إلى تعلّم حياكة «الثانغكاس»[1] الموشّى الّذي اشتهر به الدّير. أوضح لهم «زاوانغ» أنّ «الثّانغكاس» يُحاكُ بخياطةِ قطَعٍ من القماش على أرضيّة محشوّة، ثمّ توضع عليها رسوم عظيمة للآلهة. ورأوا ما صنعه أخوه معلّقًا على جدران الدّير. أحسّت «وين» بحنينٍ جارفٍ إلى الملابس المطرّزة الّتي كانت ترتديها وهي على دلتا «يانغتسي»، وتذكّرت سترات الحرير المبطّنة الموشّاة بصور التّنّين والعنقاء. ومرّ بخاطرها والداها وشقيقتها، فلا شكّ أنّهم الآن يحسبونها في عداد الأموات. أدخلت يدها في قميصها وداعبت الكتاب، فوجدته ما يزال يحتوي على لفافة الورق الّتي سلمتها إيّاها شقيقتها.

ولّما بلغوا «ونشوغومبا» قال لهم اللّاما الّذي استقبل الفتى إنّ أخاه غائبٌ لأنّه يرافق الكاهن في جولته الإداريّة عبر المنطقة. ولذلك فإنّ جميع المسافرين مرحّبٌ بهم، وبإمكانه ومرافقيْه أن ينتظروا عودة الغائب.

---

(1) قطعة من قماش متفاوتة الطّول بين المتر وعشرات الأمتار بحيث تغطّي ربوة أو جانبًا من سفح جبل. وهي خصيصة من خصائص البوذية التيبتيّة، توضع عليها رسوم أو كتابات دينية.

كانت إقامةُ الرّجال منفصلةً عن إقامة النّساء. سيقتْ كلٌّ من «وين» و«باد» إلى غرفةٍ بسيطة من الطّين والقشّ تحاذيها غرفة لجواديْهما. غرفة بسيطة مساحتها خمسة عشر مترًا مربّعًا تقريبًا، يزدان جدارُها الأساسيّ بمَلويّةٍ تحمل كتابات دينيّة. وقد احتلّت الجزءَ الأسفل من الجدار رفوفٌ من خشبٍ خشِنٍ وسريران يكمّلان الأثاث، إضافةً إلى وسادتيْن محشوّتيْن بالقشّ بُسِطتَا على الأرض للتّأمّل وتلاوة النّصوص المقدّسة. أجهشت «وين» بالبكاء حين رأت الغرفة، فقد أتى عليها حِينٌ من الدّهر لم تَحْظ بالنّوم بين جدرانٍ حقيقيّة.

فحصت الأشياء القليلة الّتي كانت تزيّن الرّفوف. واندهشت حين وجدت أنّ أغلبها من الصّين: فقد كان هناك كيسُ بلاستيك من محلّ «رونغباوزهاي» الخاصّ بالفنّانين في بيكين، وورقٌ شفّاف صُنع في «شنغدو». بل كانت هناك أيضًا شمعةٌ من «شنغهاي». كلّ ذلك جعل عينيها تنهمران دمعًا. فعدا ممتلكاتها القليلة لم تر منذ سنين أيَّ شيء صينيٍّ الأصل. فكان يخالجها الإحساسُ بأنّها تقترب من ضالّتها.

أبلغهم أحدُ الكهنة أثناء الغداء أنّ هناك احتفالاً كبيرًا يُدعى «ضرماراجا»[1] سَيُقَام في الدّير في غضون أيّام. إنّ إقامة حفل دينيّ بهذه القيمة أثناء وجودهم في الدّير جعلت التّيبتيّين الثّلاثة يشعرون بأنّ الآلهة تشملهم بعطفها. وأوضحت «باد» لرفيقتها أنّ من يلمسون «الضّرماراجا» يظفرون بالسّلام وراحة البال وتتحقق أمانيهم.

(1) مصطلح يحيل على عديد المفاهيم في البوذيّة والهندوسيّة. ويعني في البوذيّة التّيبتيّة «كاهنًا من درجة عليا».

في مساء ذلك اليوم، وقبل أن يلتحق الرّجال والنّساء بغرفهم، سألت «وين» «جي آر» عمّا إذا كان يمكنه في الصُّبح أن يستعلمَ في الدّير عن «كجون». فوعدها بأن يخاطب الرّهبان في ذلك ما إن يحلّ الصّباح.

وقبل أن تنام، خطّت «وين» سطرًا جديدًا في كتابها:

«كجون» اليوم رأيتُ حروفًا صينيّةً قد تكون إشارةً منك. أيّها الزّوج العزيز أرجوك زُرْنِي هذه اللّيلة في المنام لتخبرني أين أنت»»...

استبدّ بها الأرق تلك اللّيلة، ولم تر أيّ رؤيا.

في الصّباح خصّها أحدُ الكهنة بزيارةٍ ليُخبرها بأنّه سيُعلم جميع من في الدّير بمسألتها عند تلاوة النّصوص المقدّسة، وأنّهم سيسألون عنه الزّوار ومن سيحضر لحفل «الضّرماراجا».

وعند الفجر من يوم الاحتفال أيقظت جوقةٌ من الأجراس «وين»، نظرت من النّافذة فرأتْ شبحًا قائمًا فوق سقف الدّير: كان أحد الكهنة بلباسٍ أرجوانيٍّ يقرع آلةً ضخمةً من البرونز. وفي السّاعتين المواليتيْن رتّل الكهنة النّصوصَ المقدّسة، وانتشرت أصواتُهم تعلو وتنخفض بين أبنية الدّير.

وقُبَيل بدء الاحتفال أتاهم كاهنٌ شابٌّ وصحبهم إلى ساحة الدّير قبالة الباب المنقوش، وأجلسهم على الأرض في الصّفّ الأوّل، وهو أفضلُ موقعٍ يسمح بتلقّي بركات «الضّرماراجا». وكانت تلك المرّة الأولى الّتي تشهد فيها «وين»، عن كثبٍ، حفلاً دينيًّا تيبتيًّا. وراحت تنظر إلى أمواج الرّايات في انبهار.

وأمام أبواب الدّير انتظمت ثمانيةُ أبواقٍ طويلة وخلفها كهنةٌ يعتمرون قلانسَ ذات أعراف. وفجأةً نفخ صفٌّ من الرّهبان من أصحاب القمصان الأرجوانيّة في أبواقٍ نحاسيّةٍ قصيرةٍ متلألئة. ثمّ برز من مبنى الدّير فريقٌ من الممثّلين يشبهون ممثّلي أوبرا بيكين:

- مَنْ سيرقصون كهنة. همست «باد» لـ«وين» وحين يمرّ «الضّرماراجا» لا تنسيْ أن تتقدّمي معي ليتمكّن من لمسِ رأسك.

كان عرضًا لا يُنسى. فقد ملأ السّاحة عشرات الرّاقصين يرتدون ملابسَ ذات ألوان زاهية ويضعون قبّعاتٍ تُمثّل رؤوسَ أحصنةٍ وحيواناتٍ أخرى. كان الرّهبان يرتّلون «السّوترا»[1]، وينفخون في أبواقٍ نحاسيّةٍ وقوقعات. والأبواق الأطول تمنح الرّقص إيقاعَه، في حين كان الكاهن الأكبر يطوف على المشاهدين ويَهَبُ البركات. لم يكن لـ«وين» أدنى فكرة عمّا يعنيه الرّقص، لكنها كانت مأخوذةً بما ترى.

ثمّ التفتَتْ لتراقب الجمهور ولترى ما إذا كان النّاس منبهرين مثلها بهذا التّماهي الرّائع بين عالم البشر وعالم الآلهة. وكم كانت دهشتها وهي ترى وجوهًا صينيّة، خفق قلبُها حين رأت الألوان الزّرقاء والسّوداء والرّمادية الشّائعة في ملابسهم ضمن الألوان الزّاهية الّتي يرتديها التّيبتيّون. الهوّةُ الفاصلة بينها وبين العالم الّذي تركته تشلّ حركتها. فهي لم تنبس بكلمة صينيّة منذ سنوات كثيرة، فهل ستقدر على مخاطبتهم؟

انسابتْ بحذرٍ بين أمواج البشر تحاول الوصولَ إلى مجموعةٍ

(1) في السّنسكريتية هو الكتاب، وفي الاصطلاح: كتاب يحتوي النّصوص الطّقوسية المقدّسة.

من الصّينيّين يسهلُ الالتحاق بهم. فتبيّنت امرأة من لِداتها تجادل في الحفل بصوتٍ مسموع، وتقدّمت منها وحيّتها بانحناءةٍ من الرّأس.

- المعذرة، هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟

كانت الكلمات في فمها ذات مذاقٍ غريب.

- هل تتحدّثين الصّينيّة؟ سألت المرأة مستغربة.

- أنا صينيّة، لكني أعيش في التّيبت منذ 1958. ردّت «وين» بنبرةٍ حزينة.

اندهشت السّيّدة واندهش أصدقاؤها فأمطروها بوابلٍ من الأسئلة. واقترح رجلٌ من المجموعة أن ينتحوا ركنًا قصيًّا للتحدّث في هدوء.

- لدينا عدّة أسئلة نطرحها عليك، وأتوقّع أنّ لديك الشّعور ذاته، وأنّ لك أسئلتك. لنذهب ونجلس على تلك الرّبوة، هناك..

جلس أفراد المجموعة الصغيرة على الرّبوة في شكل حلقة. كان هناك، بالإضافة إلى الرّجل القادم من «هوباي» والذي يشتغل بالزّراعة، فتى وفتاة من «حينان». وهما تقنيّان في مستشفى تيبتيّ، وامرأة أكبر سنًّا من «سيشوان»، كانت تعمل مُدرّسة. جاء جميعهم إلى التّيبت لأغراض مختلفة. ذكر لها الفتيان أنّهما استغلاّ الحوافز الّتي تمنحها الدّولة الصّينيّة لمن يريد أن يستقرّ في التّيبت حيث الوظائف متوفّرة. وروى الرّجل الأكبر سنًّا أنّه جاء إلى التّيبت في السّنوات السّبعين حين كان هناك طلبٌ للعملة الزّراعيّين من «هوباي»، ذلك

أنّ الوضع السّياسيّ في الصّين كان معقّدًا. وقالت المدرّسة إنّها قدمت إلى التّيبت في السّنوات السّتّين «لمساعدة المناطق الحدوديّة.»

تطلّب الأمر بعضَ الوقت لتشرح «وين» مسألتها. وحين توقّفت عن الكلام لم يتفوّه أحدٌ بكلمة، واكتفوا بالنظر إليها غير مصدّقين.

كانت السيدة السّيشوانية هي من قطعَ الصّمت:

- لعلّك تعلمين أنّ المواجهات بين الصّينيّين والتّيبتيّين قد توقّفت منذ زمنٍ بعيد؟

لم تجب «وين»، وانتابها دوار. هؤلاء الأشخاص يجهلون كلّ شيء تقريبًا عن السّهول الصّحراوية في «كينهاي» وعن حياة الرُّحّل. هم يعيشون في التّيبت ولكنّهم يظلّون سجناء داخل الجاليات الصّينيّة. فكيف تُبلِغهم أنّها عاشت في مكانٍ لا سياسةَ فيه، ولا حروب، وليس هناك إلّا الاكتفاء الذاتيّ الهادئ داخل حياةٍ جماعيّة حيث يتقاسم الناس كلّ شيء، في فضاء بلا حدود، وحيث يمتدّ الزّمن بلا نهاية؟

- رجاءً ! ما هو وضع العلاقات الآن بين الصّين والتّيبت؟

تبادلت المدرّسة ورفاقها النّظرات.

- في الوقت الذي كنتِ فيه في التّيبت تغيّرت الصّين كثيرًا، ربّما أكثر ممّا يخطر ببالك، ونحن لا نعلم على سبيل الدقّة ماذا يجري في التّيبت. نحن لا ندرك جيّدًا لماذا رحل «الدّلاي لاما»[1].

---

(1) الدّلاي لاما هو أعلى رتبة دينيّة في البوذيّة التّيبتيّة .يتمّتع الدّلاي لاما بسلطة دنيويّة إضافة إلى سلطاته الرّوحيّة، وحكمت التّيبت سلسلة من هذه الرّتبة من 1642 إلى 1959 عندما غادر الدّلاي لاما إلى المنفى (الهند) ومعه مائة ألف من أتباعه حيث أسّس حكومة تيبتيّة في المنفى معارضة لحكم الشيوعيين.

لقد مرّت سنواتٌ على حديثها مع «زهوما» عن هذا الأمر، ولم تفكّر «وين» كثيرًا في أمر «الدّلاي لاما» لكنّها صُدمت من كونه لم يعد يعيش في «البوتالا»[1].

- ولكن لماذا رحل؟ تساءلت.

- لا أدري، أجابت المرأة، يقال إنّ العلاقات بين الحكومة الصّينيّة و«الدّلاي لاما» كانت في البداية جيّدة، وإنّ الحكومة الشّيوعيّة حظيت في بداية السّنوات الخمسين بدعم الشّعب التّيبتيّ وتأييد النّخبة التّيبتيّة. ويبدو أنّ لقاء 1954 بين «الدّلاي لاما» والرّئيس «ماو زيدونغ» كان ودّيًا جدًّا. في تلك السّنة قبِل «الدّلاي لاما» و«البنشان لاما»[2] بحماية الحكومة الصّينيّة خلال مؤتمر الشّعب، وهو ما يدلّ على انخراط التّيبت في النّظام الحاكم ببيكين.

قاطعها الرّجل الأكبر سنًّا:

- هذا رأيُ مجموعةٍ من النّاس، لكنّ آخرين يرون أنّ «الدّلاي لاما» كان شابًّا يسهُل التأثير فيه، فتلاعبت الحكومة الصّينيّة به. ولكنْ، حتّى وإنْ نجح الصينيون في التأثير فيه بخصوص مسائل دنيوية، فإنّهم لم يفلحوا في نزع إيمانه باستقلال التّيبت.

استأنفت السّيّدة الحديث:

---

(1) البوتالا قلعة- قصر هي مقرّ الحكم في عهد «الدّلاي لاما»، وقع تشييدها في القرن السّابع عشر فوق «الهضبة الحمراء» وبها القصر الأحمر والقصر الأبيض إشارة إلى جمع «الدّلاي لاما» للسّلطتين الرّوحيّة والدّنيويّة.

(2) هو الدّرجة الثّانية في البوذية التيبتية بعد الدّلاي لاما

- من يستطيع معرفة الحقيقة؟ لقد كان «الدّلاي لاما» ممزّقًا. كانت هناك حملات سياسيّة ترفع شعاراتٍ من نوع «اُقتلوا الأغنياء وساعدوا الفقراء»، أو «المساواة بين الجميع»، أو «لا تسامح مع الدّين».. هذه الشّعارات هي التي أضعفت من سلطة الأسياد الإقطاعيّين في التّيبت ودمّرت الثّقة بـ«الدّلاي لاما» في بيكين. من جهة أخرى لم يكن «الدّلاي لاما» يريد إغضاب بيكين، فحاول اللّعب على الجبهتين، فخسر على طول الخط. لقد أرسلت بيكين جيشًا للقضاء على الاتّحاد الموروث بين الكنيسة والدّولة التّيبتيّة. أمّا الجيش المُدافع عن العقيدة، فقد كان غيرَ قادرٍ على حماية عرش «الدّلاي لاما» رغم الدّعم الغربيّ، ومن ثمّ عجّل بالفرار، حتّى إنّه لم يجرؤ على أخذ ملابسه الخاصّة.

إلى هنا ظلّ الشّباب صامتين، ثم تحدّث أحدهم:

- كان المرحوم «زهو أنلاي»[1] يقول إنّ «الدّلاي لاما» كانت له صبغة إلهيّة عندما كان يعيش في «البوتالا»، وإنّه إذا غادر إلهٌ معبدَه فإنّ هالة قداسته تفقد توهّجها. وأظن أنّ «الدّلاي لاما» بمغادرته التّيبت تخلّى عن الكفاح في سبيل الاستقلال.
- لستُ على يقين من أنّكَ على صواب. قالت السيدة المسنّة، أحسب أنّه كان يريد الرّجوع، فبفضل جهوده زاد عدد المهتمين بالتّيبت في العالم.

(1) زهو أنلاي (1898 / 1976) هو أوّل وزير أوّل في حكومة الصّين الشعبية بقيادة ماو زيدونغ (ماو تسي تونغ).

شعرت «وين» بالدوار، وانتابها الشّكّ في قدرتها على فرز كلّ هذه المعلومات المتداخلة الّتي سمعتها. كان الوقت متأخّرًا عندما نزلت المجموعة من الرّبوة. خمّنت أنّ العثور على زوجها أهمّ لديها من أن تكون على علم بالتغيّرات السّياسيّة. وكانت مُصرّةً على معرفة ما إذا كان هؤلاء قادرين على مساعدتها قبل أن يفترقوا. لكن، ما من أحد منهم قادر على إعطائها نصائح عمليّة، فهُمْ أنفسهم يجدون عُسرًا في تلقّي رسائلَ من الصّين.

- إذا كنت ذاهبة إلى «لاسّا»، قالت لها السيدة، فقد يكون لدى ضبّاط الجيش معلومات، وسيساعدونك على العودة إلى الصّين.

شكرتها «وين». وحتّى لو كانت تودّ من كلّ قلبها أن تعود إلى «سوزهو» وتحضن والديها وشقيقتَها، فإنّها لا تقدر على مغادرة التّيبت ما لم تعلم شيئًا عن «كجون» و«زهوما». رأت الصّينيّين الّذين التقت بهم لأوّل مرّة بعد غياب سنين يبتعدون. إنّها لا تنتمي إلى مجموعتهم، ومنذ اليوم، «جي آر» و«باد» هما الأهل.

عند عودتها إلى المدرسة وجدت «لاما» جالسًا على الأرض أمام الباب يسبّح، وحين اقتربت رفع إليها عينيه وسألها:

- قيل لي إنّك تبحثين عن امرأة تُدعى «زهوما».
- نعم. هل تعرف عنها شيئا؟
- أنا أيضًا أبحثُ عنها منذ سنوات. كنت خادمَها وتفرّقنا خلال عاصفة عندما كنّا مسافريْن معًا. ضربتُ في الأرض أيّامًا وأيّامًا في طلبها. كدتُ أفقد الحياة لو لم يعثر عليّ كاهنٌ من هذا الدّير

كان يجني الأعشاب الطبّيّة في الجبال، فحملني إلى هنا. ومنذ ذلك الحين نذرتُ حياتي لهذا الدّير. ولكنّي لم أكفّ عن سؤال الزّائرين عن أخبار سيّدتي العزيزة.

لم تقدر «وين» على الكلام.

- هل أنت «تيان آن مان»؟

- أجل... هي من سمّتني به. أجاب اللاما، مندهشًا.

في الأيّام الّتي تلت احتفال «الضّرماراجا» زار «تيان آن مان» «وين» و«جي آر» و«باد». وحين علم بقصّة «زهوما» لوى يديه الكبيرتين حتّى طقطقتْ مفاصلهما. كان يبدو منشغلَ البال. قال لهم إنّه طلبَ من الكاهن أن يمنحه إجازةً من الدّير وإنّه يرغب في الانضمام إليهم في البحث عن «زهوما»، وأعلمهم بعد ذلك بنجاح مسعاه. وفضلاً عن ذلك فإنّ القسّ كان يبدو مستعدًّا لمباركة سعيهم إلى توحيد مصير التّيبتيّين والصّينيّين. ورافقهم «تيان آن مان» إلى الكاهن الرّئيس، فاستمع إليهم بشغف.

- فوق هذه المرتفعات العليا، قال الكاهن، يمكن للسّماء أن تتغيّر، وكذلك النّاس والجواميس والخرفان والأزهار والمراعي... كلّ شيء يمكن أن يتغيّر إلّا الجبال المقدّسة. وإذا تركتم رسائلَ على الجبال المقدسة الثّلاثة عشر، فإنّ من يعرف «زهوما» سيدلّكم عليها.

سلّم لـ«وين» قلمَ حبرٍ جافّ، وقال لها إنّه كنزٌ عصريّ. فسعدت به سعادة كبرى، فهو عندها لا يُقدّر بثمن لأنّ تحرير يوميّاتها أصبح سلواها الأولى. أمّا الحجر الملوّن فكان يترك على صفحات كتابها أثرًا

باهتًا. وفي تلك الليلة كتبت سطورًا جميلة سوداء.

أمّا «باد» فكانت تبدو حزينةً لمغادرة الدّير. فقد عاد شقيق «زاونغ» مع الكاهن الرّئيس، وصار رفيقها يقضي في صحبتها وقتًا أقلّ. وكلّما فرغ الكهنة من مشاغلهم اليوميّة كان «زاونغ» يلتحق مُسرعًا بأخيه الّذي لم يره منذ عقدٍ من الزّمن ليتبادل الحديث معه. تساءلت «وين»: كيف لـ«باد» أن تصمد بعد أن اعتادت على صحبةٍ كهذه. ولكنّ قلقها لم يكن في محلّه، فليلة الرّحيل جاءها «جي آر» وأعلمها أنّ «زاونغ» يرغب في أن يكون معهم، إذ يبدو أنّه لم يعد قادرًا، هو أيضًا، على مفارقة الفتاة. انطلقت الرُّسُل على الخيل إلى «جيلا» وعائلة «زاونغ» لإعلامهم بالعثور على «تيان آن مان» وبقرار «زاونغ» الانضمام إليهم ومساعدتهم في البحث. وكانت الجماعة قد أرسلت من قبل مثل هذه الرّسائل، لكنّها لم تتلقّ ردودا.

قدّم لهم الدّير خيولاً وزادًا. وعندما ركبوا لاحظت «وين» أنّ «تيان آن مان» حمل في ما حمل مطويّةً حريريّة، فظنّت أنّ عليه، باعتباره كاهنًا، أن يحمل معه النّصوص المقدّسة. بيد أنّه ذكر لها خلال المسير أنّ تلك المطويّة تحمل رسائل في طلب معلومات عن «زهوما»، فقد علّمه الدّير أشياء كثيرة منها الكتابة.

كم قضوا من الوقت في سفرهم حول الجبال المقدّسة بـ«كنغهاي»؟ فقدت «وين» مفهوم الأيّام والأسابيع، فهناك، بين الجبال المقدّسة العملاقة، جبالٌ أخرى يجب اجتيازها، لكنّهم كانوا جميعًا يرفضون التّسليم بالهزيمة. وعزموا على ألاّ يتوقّفوا إلّا بعد أن يودعوا مطويات «تيان آن مان» على الجبال الثّلاثة عشر.

وفيما كانوا بين الجبلين الأوّل والثّالث أعلن «جي آر» موافقته على زواج «زاونغ» و«باد» فكانت الجبال الصّامتة شاهدًا على زواجهما.

وقال:

- إنّنا موجودون تحت أنظار الآلهة. هذا الارتباط هو جزءٌ من المخطّط الإلهي.

تساءلت «وين» ما إذا كانت «باد» بما لها من قدرة على التّنبؤ قد حدست هذا الزّواج. وربّما لهذا السّبب انتظرت طويلاً قبل أن ترتبط بأيّ رجل، متحدّيةً بإصرارٍ التّقليدَ التّيبتيّ الذي يقضي بالزّواج المبكّر.

عند الوصول إلى الجبل الخامس وضعت «باد» طفلة سمّتها «زهوما».

خشيت «وين» من زيادة هذه الرّضيعة إلى المجموعة، فهذا السّفر لا هوادة فيه، وهو يرهق «باد» بشكلٍ قاس. وليس من العدل في نظرها أن تجعل «باد» حياتها وحياة الولِيدة عرضةً للخطر بمواصلة البحث. ففاتحت «تيان آن» و«جي آر» في الأمر. فرأوا أن يرافق «جي آر» الزّوجين إلى مكان يُنشئان فيه حياةً كريمةً لعائلتهما، ثمّ يلتحق بعد ذلك بـ «جيلا» و«سايرباو» فقد طال مُكوثه بعيدًا عنهما أكثر ممّا يجب، بينما يظلّ «تيان آن مان» لحماية «وين».

ونظرت «وين»إلى «جي آر» مبتعدًا ووراءه «باد» و«زاونغ» متسائلةً ما إذا كانت ستراهم مرّة أخرى. وبدا لها أنّ ما بقي من حياتها لن يكفي لمكافأة «جي آر» وعائلته لما فعلوه من أجلها.

- أوم ماني بيدم هوم. همست وهي ترى أشباحهم تختفي بعيدًا.

وعلى الجبل التّاسع عثرا على رسالة «زهوما». كان الجبل مغطّى بتلال صغيرة من أحجار «ماني» مكتوب عليها مقاطع من الكتابات المقدّسة البوذيّة.

- إنّه «سوترا» الألماس، قال «تيان آن مان»، هناك فصلٌ من الكتاب لكلّ تلّة من هذه التلال.
- هل يمكن أن ألمس إحداها؟ سألت «وين».
- أجل، أجاب «تيان آن مان»، فعندما نضع أصابعنا على الكلمات نشعر بوجود الآلهة.

مشى كلٌّ منهما في اتجاهه لفترةٍ قصيرة وهما يطوفان بأكداس الحجارة ويقرآن الصّلوات المكتوبة عليها. حاولت «وين» أثناء تأمّلها أن تتخيّل كَمْ جيلاً من الأيدي حفرت هذه الكلمات المقدّسات وراكمتها على هذا الجبل حيث ستظلّ آلاف السّنين. فجأةً أطلق «تيان آن مان» صرخةً، فالتفتتْ فرأته يرفع «خاطا» أبيضَ التقطه من صفوف الرّايات الخافقة في الرّيح وهو يصيح بكلام غامض. وحين التحقتْ به كان شديد الاضطراب وعاجزًا عن الكلام. تناولت الوشاح من يديه. *كان مكتوبا عليه رسالة بسيطة («زهوما» تبحث عن «تيان آن مان» وهي تنتظره في الجبل القادم عند كوخ ناحِتِ الحجارة»)*.

خفق قلباهما خفقًا شديدًا وهما يمتطيان جواديهما مُتَّجِهَيْن نحو الجبال المجاورة. منذ متى والرسالة ها هنا؟ هل كانت «زهوما» تنتظر هنا؟ وكم انتظرتْ؟ اقتضى السّفر أيّامًا. وحين بلغا سفح الجبل رأيا

من بعيدٍ كوخ ناحِتٍ للحجارة وقد انتصب فوقه شبحُ امرأة، فحثّا جوادَيهما عَدْوًا نحوه. والتفتت المرأة: إنّها «زهوما».

ظلّ ثلاثتُهم فترةً طويلةً صامتين لا ينطقون بحَرْفٍ. فما من كلام يمكن أن يعبّر عن قوّة مشاعرهم. ترجّلتْ «وين» من على ظهر جوادها وعانقت صديقتها التي لم ترها منذ أكثر من عشرين عامًا. ووقف وراءها «تيان آن مان» فحيّا سيّدته السّابقة وعيناه تفيضان بدمع صامت. ها قد وجدها، لكن ليس له أن يحتضنها، إذْ لا يحقّ لامرأة في التيبت أن تلمس رجلاً نذر حياته لبوذا.

وأمام صمت «زهوما» فَهِمَا أنّها لا ترغبُ في الحديث عمّا عاشته منذ اختطافها. ولم يعرف «وين» و«تيان آن مان» سوى أنّها أخِذت إلى المدينة الصّينيّة «كسيننغ» في الشّمال الشرقيّ لـ «كينغهاي» حيث قضت سنواتٍ طوالاً قبل أن تتمكّن من الخروج منها. ومرّت عليها سنتان وهي تبحث عن عائلة «جيلا». وحين وجدتها كانت «وين» قد رحلت منذ فترةٍ طويلة.

- كيف خطر لك أن تتركي رسائلَ على الجبال المقدّسة؟ سألتها «وين» وهي تتعجّب من القدر الذي أوحى لهما بالشيء نفسه.
- قال لي أحدُ ناحِتي حجارة «ماني» شيئًا لن أنساه أبدًا، ردّت «زهوما»: «في الجبال المقدّسة يعثر التّيبتيّون دومًا على ما فقدوه»، لذلك قرّرتُ أن أزور جميع الجبال المقدّسة كلّ سنة. وإذا لم أتلقّ أخبارًا في الشّتاء عُدْتُ إلى الجبل الأوّل ربيعًا واستأنفْتُ السّفرَ. وأضافتْ، وهي تلقي نظرةً حزينةً على «تيان آن مان»: هذا ما فعلتُ. زرتُ كلَّ جبل أكثر من مرّة، وها هي

الجبال تعيد إليّ ما فقدتُ.

والتفتَتْ إلى «وين» وقالت:

- هل عثرتِ على «كجون»؟

اكتفت «وين» بأن هزّت رأسها نفيًا.

- إذن أريد أن أساعدك في العثور على ما فقدتِ. أرجوك، ماذا عليّ أن أفعل؟

بدت كلمات «زهوما» وكأنها هديّةٌ من السّماء. فمنذ أن التقت بالصّينيّين في «وينشوغومبا» فكّرت في ما أخبروها به عن الحضور الصّينيّ في التّيبت.

- أودّ الذهاب إلى «لاسا». فقد أجد هناك عناصر من الجيش الصّينيّ ربّما احتفظوا بأثرٍ ممّا حصل لكتيبة زوجي.

ألقت «زهوما» على «تيان آن مان» نظرةً متسائلة، فقال:

- سأرافقكما إلى «لاسا». لكن عليّ بعد ذلك أن أعود إلى الدّير.

لم تنظر «وين» إلى «زهوما»... كانت متأثّرةً من كون صديقتها ستواجه مرّةً أخرى فقدان الرّجل الذي أحبّت.

مرّت بخاطري رؤية «وين» و«زهوما» متقابلتين وجهًا لوجه، بشَعْرَيْهما الرماديّيْن، تخشيان كثرة الحديث، وترتابان من الأسئلة. فكلتاهما تعلم أنّ من الأفضل عدم الخوض في بعض المواضيع، فلا قدرة لهما عليها، وتعلمان أنّ قلبيهما، بعد كلّ تلك السّنوات من الحزن والتّغييرات، لن يقدرا على التّحمّل.

لطالما تساءلت عمّا يمكن أن يكون حدث لـ«زهوما» خلال كلّ هذه الفترة، لقد خُطفت على الأرجح لتكون زوجةً لأحدهم. فهذا الأمر غالبًا ما كان يحدث في المناطق القريبة من طريق الحرير. ولأجيال، كان المغول والتّيبتّيون والصّينيّون الّذين يعيشون على أطراف هذه الطريق يعوّلون على القوافل لتوفير الزّوجات. وقد تكون الزّوجة أحيانًا ميسورة، فيساومها الخاطفون، فلا تلبث مع الزّوج إلّا زمنًا محدودًا، وربّما كان الأمر على هذا النّحو في ما يتعلّق بـ«زهوما». فعندما التقت بـ «شو وين» و«تيان آن مان» كانت ما تزال تحتفظ بحليّها الموروثة، وهو ما قد يدلّ على أنّ زوجها كان ثريًّا وذا نفوذ وأنّه لم يمدّ يده إلى ممتلكات زوجته. ومهما يكن من أمر، وحتّى لو كان ما افترضتُه صحيحًا، فليس من السّهل أن تتخيّل امرأةً متعلّمة مثل «زهوما» وقد صمدت كلّ هذه السّنوات أمام زواجٍ قسريّ، ولا أن تتصوّر كيف تأقلمت مع الحياة بعد ذلك..

7

كيانغبا، النّاسك العجوز

توجّهت «وين» و«زهوما» و«تيان آن مان» نحو الجنوب. وحين بلغوا منطقةً تُعرف «بالبحيرات المائة» وشاهدوا البحيرة الكبرى «دونجي تسُووَا» تمتدّ كالبحر عند سفح «أمني ماشن»، كان الفصل صيفًا. الرّيحُ خفيفةٌ، والشّمس تمنحهم الدّفء وتبعث فيهم الفرح. وفيما كانوا يقتربون من الضّفّة فوجئوا بوجودِ خيام كثيرة، وكانت «وين» تدرك أنّ الرُّحَّلَ لا يجتمعون إلّا قليلاً، ولعلّ إحدى الحفلات المهمّة قد دعت هؤلاء إلى الاجتماع.

نصبوا خيمتهم وربطوا جيادهم. وفي ذلك المساء ذهب «تيان آن مان» لمقايضة الغذاء بقطعة من الحُليّ الّتي تمكنت «زهوما» من الاحتفاظ بها لسنوات. ولمّا عاد قال إنّ حفل «أوبرا على ظهور الأحصنة»[1] سَيُقَامُ في غضون يومين. تطلّعت «وين» إلى معرفة هذا النّوع من المسرح. أمّا «زهوما» فما فتئت تتذكّر هذا اللّون من العُروض في طفولتها: كان الممثّلون، أوضحت لصديقتها، كهنةً متدربين خصّيصًا لهذا الغرض، يركبون الجياد في ملابسَ مخصوصةٍ،

---

(1) شكل من أشكال المسرح التّقليديّ في التّيبت.

ولم يكن هناك لا إلقاءٌ ولا أغانٍ، بل إنّ الأشكال الّتي يُكوّنها الرّجال بحركاتهم على وقع الموسيقى هي الّتي تروي الحكاية.

لم تنم «وين» تلك اللّيلة رغم تعب الطريق. كان هناك صدى أغنيةٍ بعيدة يدفع النّوم عنها. ليستْ أغنيةً تشبه ما سمعته من قبلُ. ولعلّها لم تكن إلّا من وحي خيالها، فقد كانت «زهوما» و«تيان آن مان» نائمَيْن في دعة.

وفي الصّباح حين ذكرت لـ«زهوما» ما كان من أمر الأغنية اللّيليّة، حدّثتها رفيقتها عمّا يتناقله كبار السّنّ من روايات عن أصوات لأشباح تنزل من الجبال. فَسَرَت رعدةٌ في أوصالها.

قرّرت المرأتان أن تنفقا يومهما في استكشاف محيط البحيرة على صهوة جواديهما. فخرجتا منذ الصباح الباكر وعندما كانتا متّجهتين نحو الشّرق بمحاذاة الضّفّة رأتا طيورًا تنبش في الأرض، وتمرح على حافّة الماء المتلألئة، بينما كانت بعضُ السّحب تمخر السّماء ذات الزّرقة الصّافية وبعض الطّيور تحلّق واصِلَةً السّماء بالأرض.

سحبت «زهوما» زمام جوادها إليها وقالت:

- أتسمعين شخصًا يغنّي؟

وعندما توقّف وقعُ الحوافر سمعتَا الصّوت يصلهما صافيًا واضحًا. كان هناك صوتٌ، صوتُ رجل يشدو بلحن حزين. شاهدت «زهوما» بنتين صغيرتين تحملان الماء، فتقدّمت منهما على جوادها.

- هل تسمعان هذه الأغنية؟ سألتهما.

فهزّت البنتان رأسيها إيجابًا.

- هل تعلمان من المغنّي؟ أشارت الفتاة الأكبر سنًّا بإصبعها إلى نقطةٍ متناهيةِ الصّغر في الجانب الآخر من البحيرة.
- إنّه النّاسك العجوز «كيانغبا».. يغنّي هناك يوميًّا. أسمعه كلّ يوم عندما أرِدُ الماء. وتقول أمّي إنّه الرّوح الحارس للبحيرة.

اتّجهت المرأتان نحو المغنّي، ولكن كان عليهما أن تقطعا ساعتيْن من السّير، فقد كانت البحيرة من الامتداد حتّى إنّ النّاسك لا ينفكّ يبدو بعيدًا مهما اقتربتا. ولم تتمكّنا من رؤية وجهه، بل لم تبصرا سوى أسماله تخفق في الرّيح.

بدت الصّخرة الّتي كان جالسا عليها من بعيدٍ كما لو أنّها تتوسّط الماء. وعندما اقتربتا تبيّنتا أنّه يجلس على جزء من الأرض متقدّم في البحيرة.

- ماذا يغنّي؟ سألت «وين» رفيقتها.
- الأغنية تشبه مقطعًا من الأسطورة الكبرى للملك «قيصر»[1]، وهي الحكاية نفسها الّتي ستمثّل غدًا على ظهور الخيل خلال الأوبرا. إذ يتداولها الرّواة منذ قرون، وهي أطول حكاية في العالم.

فكّرت «زهوما» أنّ الأجدر بهما الوصول إلى النّاسك من ضفّة البحيرة الأخرى، واقترحت أن تؤجّلا الأمر إلى الغد.

---

(1) الاسم مستعار من الرّومانيّة. كما تسمى ملحمة قيصر خان أو قيصر لينغ. قصيدة ملحميّة مشهورة في التّيبت وفي منغوليا مسجّلة تراثا إنسانيًا، وهي أطول قصيدة في العالم حتّى الآن إذ تتجاوز أبياتها عدّة ملايين وسيتّضح محتواها في الرّواية.

عند عودتهما إلى الخيمة وجدتا «تيان آن مان» قد أقام موقدًا من الحجارة الكبيرة وضع عليه قِدْرًا تَضُوع منه رائحة لحم لذيذة. فقد نجح في الحصول على نصف خروف أعدّه على الطّريقة الصّينيّة.

– من علّمك قواعد المطبخ الصّينيّ؟ سألته «زهوما» مستغربة.

– أنت. ردّ.

– غير معقول. قالت «زهوما»، لم أكن أتقن إعداد حتّى «التّسامبا» في تلك الفترة، لأتقن الطّبخ الصّينيّ.

– بلى، ابتسم «تيان آن مان»، حدّثتِني عن الأطباق الصّينيّة الّتي كنت تناولتِها في بيكين، ألم تقولي إنّ الصّينيّين يطبخون الخروف مع أعشاب زكيّة الرائحة، وإنّه طريّ ويقدّم مع حساء مالح؟ هكذا أعددتُه.

انفجرت المرأتان ضحكًا.

– ذكرتِ لي أنه لا يطرح أسئلة أبدًا قالت «وين»، لكن الإنصات... يتقنه.

كان الخروف الذي أعدّه «تيان آن مان» لذيذًا. لم تكن «وين» قد تناولت أيَّ طبقٍ مُعدٍّ بهذه الأعشاب، لكنّها لم تقل شيئًا.

أثناء العشاء قال «تيان آن مان» إنّه علم بأنّ أكثر من ألف شخص يُنتظر حضورهم غدًا لمشاهدة الأوبرا. وستكون الفرصة سانحة للسّؤال عن زوج «وين». وقضى الأصدقاء الثّلاثة السّهرة رائقي المزاج وهم على يقين من أنّ ما يصبون إليه على وشك التّحقّق.

في صبيحة اليوم التالي بدأت أفواجٌ من النّاس تتجمّع على الرّبوة،

لأنّ العرض سيُقامُ في السّهل. لم تكن «وين» قد رأت لذلك مثيلاً منذ حفل «ضرمراجا» في «وينشوقومبا»، فقد كان الاختلاط بالنّاس يثيرها ويخيفها في الوقت نفسه. وصلوا الموقعَ مبكّرين فيما كان الكهنة يعدّون ماكياجهم وملابسهم. ومن خلال فتحات الخيام المعدّة للممثّلين شاهدوا عددًا من الإكسسوارات البديعة التّلوين. كان بعض الشّبّان يقفون حول الخيام، يجرّبون وضع القبّعات والخوذات والأكاليل. وكانت أجواءٌ من الحماس المفعم تسود المكان.

بدأ العرض على وقع نغماتٍ من آلةٍ وتريّة.. خشيت «وين» ألّا تدرك ما يعنيه عمل الممثّلين، لكنّ حركاتهم المعبّرة وهم على ظهور الجياد كانت واضحة. فقد روت الأوبرا جزءًا من أسطورة الملك «غيزار»، وقد أُرسل إلى الأرض من طرف البوذيّ «ساتفاشنرسيغ»[1] الّذي كان يسهر على مصائر البشر لتخليص الإنسانيّة من الأرواح الشّريرة، وإخماد العنف، ونجدة الضّعفاء.

ذكّر الكهنة «وين» بممثّلي الأوبرا في بيكين. لكنّ هؤلاء كانوا على الجياد يرفعون أعلامًا وراياتٍ، متّخذين أوضاعًا مختلفة ويصيحون ويَزْأَرُونَ بأصوات غريبة. وكانت «زهوما» إلى جانبها تشرح لها ما لا تفهم بصوتٍ خفيض.

امتلأت «وين» إعجابًا بحركات الممثّلين المستوحاة من الحياة

(1) تقول الأسطورة التّيبتية إنّ بوذا خلق البوذي «ساتفاشنرسيغ» تعاطفًا مع الإنسانيّة وبعثه إلى جزيرة صغيرة في قلب «لاسا» . فلمّا رأى الآلام المنتشرة تمنّى ألّا يغادر العالم دون تخليص الأشقياء من شقائهم، فكان له ذلك. ورجته الكائنات أن يتّخذ له جسدًا ففعل، وأخذ يلقّن النّاس تعاليم البوذيّة.

اليوميّة. واستغربت أن يُتقن الكهنة، وهم معزولون في الأديرة مثل هذه الحركات. ولكن قد لا يكون هناك فرقٌ بين الحياة داخل الدّير وخارجَه. فقد توصّلت إلى إدراك أنّ التّيبت في صميمه لا يعدو أن يكون ديرًا كبيرًا. إذ تسكن الرّوح الدّينيّة ذاتها، كلّ سكّانه وهم يحملونها كما يحمل القسّ عباءته.

ولمّا حلّ المساء، ربط الكهنة دوابّهم وأعادوا حزم ملابسهم. وتحلّق المشاهدون حول نار المعسكر، وتناولوا جعة الشّعير والشّاي بالزّبدة، في حين كانت خرفانٌ كاملة تُطهى على النّار، وتملأ رائحتها الفضاء، وكان الشّحم المذاب يُحدث نشيشًا كالألعاب النّاريّة.

فجأةً سُمع صراخٌ حادّ، وهرع الجميع لرؤية ما يحدث. صاح أحدهم يطلب ماءً ساخنًا وطبيبًا.

تسلّلت «زهوما» بين النّاس لتسمع ما يقال. وقالت تترجم لصديقتها:

- امرأة جاءها المخاض، ويبدو أنّها تجد عسرًا في الوضع، وعائلتها تطلب العون. هل يمكنك فعل شيء؟

تردّدت «وين». فهي لم تستعمل مهارتها الطّبّيّة طيلة كلّ هذه السّنوات الّتي قضتها في التّيبت، فهل من الحكمة أن تدّعي القدرة على المساعدة في حالة ولادة متعسّرة؟

لاحظت «زهوما» تردّدها، فقالت لها:

- تعالي، إنّهم في حالة من اليأس. على الأقلّ تعالي وأُنظري...

في إحدى الخيام استلقت امرأةٌ شديدةُ الشّحوب. كان جسدُها

يهتز بأكمله اهتزازاتٍ متقطّعةً وهو ملطّخٌ بالدّم. وكان رأسُ الوليد بارزًا، لكنّ سائر الجسد لم يتمكّن من الخروج لأنّ الحبل السّرّيّ معقود حول العنق. والأخطر من ذلك أنّ العائلة كانت تحثّها على الدّفع، فتحوّل لونُ الوليد إلى أحمرَ قانٍ وهو يختنق بالحبل الّذي يزداد ضغطًا على عنقه.

صرخت «وين» بالمرأة أن تكفّ عن الدّفع. وفيما كانت تغسل يديها أعطت تعليماتها بصوت مرتفع إلى «زهوما» حول طريقة مساعدتها لها. وقفت العائلة جانبًا في صمتٍ، متأثّرةً بالنّجاعة التي أبدتها الطّبيبة.

دفعت «وين» بحذرٍ شديدٍ رأسَ الوليد داخل الرّحم من جديد، وحاولت أن تتذكّر ما تعلّمته في كليّة الطبّ. ففي مثل هذه الحالة ينبغي تدليك الرّحم بلطف. قالت «زهوما» للجميع -لتوضّح لهم الأمر- إنّها طبيبة صينيّة وهي تستعمل طُرقًا صينيّة في التّوليد. ثمّ أشارت «وين» على الأمّ أن تدفع. وما هي إلّا لحظات حتّى خرج الوليد ببطء ولكن بأمان. لقد كان ولدًا جميلاً. ووسط صيحات الفرح قطعت «وين» الحبلَ السّرّيّ بيد خبيرة، سحبت المَشيمة ونظّفت أسفلَ جسد الأمّ بعشبة طبّيّة أحضرتها العائلة. ثم رأتهم يسقون الوليد حساءً من الأعشاب على غرار ما فعلوه مع وليديْ «أوم» و«باد» وذلك لحمايته من لسعات الحشرات. سلّمت «وين» الرّضيع إلى والده ملفوفًا، فخشي أن يأخذه بين ذراعيه، ففتح قميصه وطلب من «وين» أن تضعه فيه. لقد كان مضطربًا، وقال للصّديقتين إنّه وزوجته كانا يرغبان في طفل منذ أعوام، لكنّ أملهما كان يخيب في كلّ مرّة بسبب الإجهاض أو تعقّداتٍ أثناء الحمل.

- أعرفُ الآن طبيبًا صينيًّا ثانيًا أنجز عملاً مهمّا. قال الرجل.

تجمّدت «وين» في مكانها:

- ماذا تريد أن تقول؟ هل التقيت طبيبًا صينيًّا آخرَ؟

- روى أبي أنّ هذا الطّبيب قد حظيَ منذ مدّة طويلة بجنازة سماويّة، وأنّه بفضل ذلك توقّفت المعارك بين التّيبتيّين والصّينيّين في تلك المنطقة.

نظرت «وين» إلى «زهوما» بقلبٍ خافقٍ مضطرم.

هل يكون هذا الطبيب «كجون»؟

شاهدت «زهوما» تأثّرها فساعدتها على الجلوس.

- لا علم لي بالتّفاصيل، واصل الرجل، لكنّ والدي ذكر أنّ النّاسك العجوز «كيانغبا» يعرف الحكاية.

في تلك اللّحظة دخل الخيمة رجلٌ على عجل وقدّم لـ«وين» وشاحَ «خاطا» أبيضَ ناصعًا كنايةً عن شكرهم لها. ثمّ صحبها إلى الخارج باتجاه الحشد الذي استقبلها بالتّصفيق وهتاف الفرح. وقدّمت لها سيّدتان مسنّتان كانتا تطهوان خروفًا فخذًا كبيرًا إجلالاً لما صنعت. لم تلتحق «وين» بخيمتها إلّا بعد ذلك بساعات. وكانت الصّديقتان قد قرّرتا أن تشرعا منذ الغد في طلب «كيانغبا».

أحسّت «وين» وهي تستلقي بدوارٍ خفيفٍ بسبب ما عبّته من جعّة الشّعير. وكانت الرّيحُ في الخارج قويّةً تُأرجح المصابيح المضاءة بالزّبدة. لكنّها أرهفت السّمع، مُحَاوِلَةً أن تتبيّن صدى أغنيةٍ تأتي من البحيرة.

في اليوم الموالي اتّجهت «وين» و«زهوما» إلى البحيرة. وحين اقتربتا من الموضع الّذي أبصرتا فيه النّاسك كانت «وين» مفعمةً بالأمل. لكن الصّخرة الّتي جلس عليها النّاسك أمسِ كانت، مع الأسف خاليةً. ولم يدر أيٌّ من واردي الماء أين رحل. قضت المرأتان يومهما على ضفّة البحيرة في انتظاره، لكنّه لم يظهر. لقد اختفى المغنّي الغامض حاملاً معه سرّ الحكاية.

كان كلّ مَنْ توجّهتا إليه بالسؤال متيقّنًا من أنّه سيعود. فهو الرّوح الحارس للبحيرة. أمّا «وين» فكانت تشعر بأنّ أملاً آخر قد تبخّر، وكانت خيبتها لا تحتمل. انفصلت عمّن حولها وهي على حافّة الجنون، وطافت البحيرة في عدوٍ سريع، وهي تهتف في الرّيح باسميْ «كجون» و«كيانغبا».

لم تنبس «وين» ببنتِ شفةٍ لعدّة أيّام. حاولت «زهوما» مواساتها بأنّهما ستعثران حتمًا على شخص لديه أخبار أوفر عن أسطورة الطّبيب الصّينيّ. لكنّ «وين» لم تستجب، كما لو أنّ تعاقب هذه الهزائم اللامتناهي وهذه الخيبات قد أفرغها من كلّ قدرةٍ على التعبير.

كان «تيان آن مان» هو مَن أخرجها من ذهولها. فقد أسرج هو و«زهوما» الأحصنة ذات فجر وشجّعا «وين» على مرافقتهما إلى جبل قريب.

- أريدُ أن أريكما جنازة سماويّة؛ قال «تيان آن مان» بصوتٍ هادئ.

عندما أدرك الأصدقاء الثّلاثة قمّةَ الجبل كانت هناك جنازةٌ

سماويّة قد أُقيمت منذ برهة. كانت هناك أوشحةُ «خاطا» ورايات تخفق في الهواء الرّطب، وأوراقٌ نقديّة صغيرة ترقص متطايرةً فوق الأرض كنُدف الثّلج. وجدوا أنفسهم في ساحة، في منخفض منها منطقة مبلّطة يقطعها مسلك يُفْضِي إلى مذبحين شُيِّدَا من حجر.

تقدّم منهم رجلٌ أعلن أنّه المشرف على إقامة الجنازة، وسألهم ما إذا كان يمكنه مساعدتهم. فتقدّم «تيان آن مان» وحيّاه:

- نودّ أن تحدّثنا عن طقس الجنازة السّماويّة.

استغرب الرجل من سؤالٍ في أمر كهذا، لكنّه كان مستعدّا للإجابة.

- البشر جزءٌ من الطّبيعة. نحن نأتي إلى هذا العالم بطريقةٍ طبيعيّةٍ ونرحل عنه بطريقةٍ طبيعيّة. والحياة والموت جزءٌ من عجلة التّناسخ. ولا خوفَ من الموت. نحن ننتظر حياتنا الجديدة بفارغ الصبر. وحين تُضرَمُ نارٌ من شجرة التّوت لفائدة الاحتفال فإنّها تمدّ طريقًا بخمسة ألوان بين السّماء والأرض لتجلب الأرواح نحو المذبح. وهكذا تصبح الجثة قُربانًا للأرواح. ونحن ندعوهم ليحملوا الرّوح إلى السّماء. ويجلب الدّخان النّسور والعقبان وحيواناتٍ مفترسةً مقدّسةً أخرى لتتغذّى على الجثث. وَيُخَلَّد هذا الطّقس محاكاةً لـ «بوذا ساكياموني»[1] الّذي منح جسده للنّمور قربانًا.

---

(1) شاكياموني (وليس ساكياموني كما ورد في الأصل المترجم) هو الاسم الأصلّي لرجل عاش في شمال الهند منذ 2500 سنة اكتشف في شبابه الآفات الأربع الّتي تعذّب البشرية وهي الوجود في عالم سيّء والمرض والشّيخوخة والموت. وبعد رحلة عذاب من التّأمّل

وطلبت «وين» من الرّجل بصوتٍ هادئ أن يفسّر لهم بالتفصيل كيف كانت الجثة معروضة للنسور.

- في البداية يُغسل الجسد ويُحلق شعرُ رأسه، وسائر الجسد، ثم يُلَفُّ في كفنٍ من القماش الأبيض، ويُوضع في وضع جلوس، والرّأس منحنٍ نحو الرّكبتين. وحين يُحدَّد اليوم الملائم يُعَيَّن رجلٌ لحمل الجثمان إلى المذبح. ويأتي كهنةٌ من الدّير المجاور ليرشدوا الرّوح في طريقها وهم يرتّلون النّصوص المقدّسة الّتي تحرّر روحَ الميّت. وينفخ المشرف على الحفل في بوق ويُشعل النّار في أغصان التّوت لدعوة الكواسر. ويقطع الجسد وذلك بكسر العظام وفق ترتيب يحدّده الطقس. ويقطع الجسد بطرق مختلفة حسب سبب الموت. وأيّا كانت الطّريقة المنتقاة يجب أن يكون التّقطيع مُتقنًا، وإلّا فإنّ الأرواح الشّريرة ستأتي لتسرق الرّوح.
- وهل يحدث أحيانًا أن ترفض الطّيور أكل الميّت؟
- تفضّل الكواسرُ اللّحمَ على العظم، لذلك نقدّم لها العِظام أوّلا، وأحيانا نغلّف العظامَ بزبدة الجاموس. وإن أفرط أحدُهم في تناول الأعشاب الطبيّة فإنّ جسمه سيحتفظ بطعمها، والكواسر لا تحبّ ذلك. وهكذا فإنّ إضافة الزّبدة وأشياء أخرى ستجعل الجسد سائغًا. ومن الضروريّ الإتيان على الجسد كلّه وإلاّ فإنّ الأرواح الشّرّيرة تستولي على الجثّة.

والتّفكير والتّجارب الرّوحيّة اهتدى إلى أسباب كلّ ذلك فساح في الأرض لنشر تعاليمه حتّى دُعِيَ «بوذا» أي المستنير أو المتيقّظ.

ألقت «وين» لأوّل مرّةٍ نظرةً على موقع الاحتفال، وحاولت أن تقبل فكرة أن تُترك المناقير الحادّة الشّرهة تخترق لحمَ شخص حبيب. لقد انتهت بعد هذا الزّمن الطّويل الّذي قضته في التّيبت إلى قبول أشياء كثيرة كانت من قبل تبدو لها مُقرفةً ورهيبة. أصبحت العقيدة البوذيّة الآن جزءًا من حياتها. فلمَ يعسُرُ عليها إذن أن تعتقد مثل «زهوما» و«تيا آن مان» أنّ هذه العادة هي فعلٌ طبيعيٌّ ومقدّس وليست فعلاً همجيًّا؟ وإن كان «كجون» هو الطّبيب الصّينيّ الّذي يتحدث النّاس عنه، فهل ستقدر على تحمّل ذلك؟

- هل حدث أن مَارَسْتُم هذا الطّقسَ على رجل صينيّ؟ سألت «وين» الرجل.

حدجها هذا الأخير بنظرة غريبة.

- أبدًا. غير أنّ النّاسك العجوز «كيانغبا» الذي يجلس للتأمّل عند البحيرة يروي أنّه فعل ذلك.

عند العودة إلى بحيرة «دونجي» نصب الأصدقاء الثّلاثة خيمتهم بالقرب من المكان الذي تعوّد «كينغبا» أن يرسل منه الغناء، حتّى يتمكّنوا من سؤال الواردِين على الماء عمّا حلّ به. فقال بعضهم إنّه رحل وهو يسير فوق الأمواج، وقال آخرون إنّ غناءه جلب الأرواح فعرجت به إلى السّماء. وقرّروا، وهم على حافة اليأس أن يقدّموا قربانًا من حجر «ماني» جالب الحظّ. وبينما كانوا يتهيّؤون للرّحيل أقبل عليهم رجلٌ طويلُ القامة وهو يُركض حصانه حتّى انتهى إلى خيمتهم.

- هل أنتم من يبحث عن النّاسك العجوز «كيانغبا»؟

وهزّ الثّلاثة رؤوسهم متعجّبين.

- إذن تعالوا معي.

ودون قضاء وقتٍ في التّفكير امتطوا دوابّهم وتبعوا الرّجل الغريب.

وسرعان ما وصلوا أمام خيمة فدخلوها وهم يقتفون أثر الرّجل.

على مقربة من الموقد شاهدوا شخصًا مستلقيًا وهو ملتفٌّ بلحاف سميك لا يظهر منه إلّا وجهٌ شاحب.

- كيانغبا ! همست «وين».

استنتجت من صوت تنفّسه أنّ رئتي الناسك منهكتان جدًّا.

أشار عليهم الرّجل التّيبتيّ بالتزام الهدوء، ثمّ دفعهم إلى الخارج.

كان يدرك من سحناتهم القلقة ما يعتمل في أذهانهم، فطلب منهم الجلوس على العشب.

- لا تقلقوا. منذ أسبوع تقريبا، أخبرتني ابنتاي ذات صباح وقد عادتا من البحيرة بأنّ النّاسك العجوز «كيانغبا» يجلس هناك ولا يغنّي. استغربت زوجتي ذلك، وطلبت منّي أن أذهب لأستطلع الأمر. فانطلقتُ ممتطيًا جوادي مع ابنتيّ. كان الناسك كما ذكرتا، جالسًا من دون حراك، وهو صامت وقد أحنى رأسه. اقتربتُ منه هاتفًا باسمه، لكنّه لم يجب ولم تصدر عنه أية إشارة تدلّ على أنّه مازال على قيد الحياة. كان

مغمضَ العينين ملتهبَ اليديْن والجبين. فَحَملتُه على جوادي، وأحضرتُهُ إلى هنا، وأعطيناه أعشابا طبّيّة. لكن ذلك لم يكن له تأثير يذكر. تراجعت درجةُ حرارته، غير أنّه ظلّ نائمًا طوال الوقت. ولا يتلفّظ بكلمة. واليوم إذ عادت ابنتي من البحيرة ذكرت لي أنّكم أقمتم خيمتكم على الضّفّة منذ أيّام وأنّكم ترغبون في لقاء النّاسك... وهكذا جئتُ لرؤيتكم.

ألقى نظرةً على الخيمة وقال:

- الجميع هنا يحبّون النّاسك العجوز «كيانغبا» ويقدّسونه. لكنْ لا أحد يعلم من أين أتى. كلّ ما نعلمه هو أنّه ظهر هنا قبل عشرين عامًا بأعجوبة، وطفق يتأمّل على ضفاف البحيرة ويتغنّى بقصص الملك «غيزار» وجبل «أمنيماشن» وأرواح التّيبتيّين المعظّمة. وأحيانًا كان يتغنّى بقصّة طبيب صينيّ وضع حدًّا للمعارك بين الصّينيّين والتّيبتيّين في هذه المنطقة. وكان النّاس يقدّمون له الطّعام حين يرِدون الماءَ، لكن لا أحد منّا يعلم أين يعيش. وقد يتّفق له أن يتحدّث مع كهنة الدّير المجاور.

حاولت «زهوما» جاهدةً أن يتيح الرّجل لـ«وين» فحص النّاسك، لكنّه رفض رفضًا قاطعًا. بل كان متمسّكًا بحمله إلى الدّير المجاور، ورفض السّماح لأيّ من المرأتين بمرافقته، لأنّ دخول الدّير محظور على النّساء، وليس في هذا الدّير مأوى خاصٌّ بهنّ. وبعد مفاوضة قصيرة تقرّر أن يذهب «تيان آن مان» مع النّاسك على أن تنصب المرأتان خيمتهما في مكان قريبٍ في انتظار ما يجدّ.

مضت عدّة أيّام قبل عودة «تيان آن مان». وكانت «وين» تنتظر، وهي تقتعد العشب في مدخل الخيمة وتردّد بينها وبين نفسها بصوت خافت *«أوم ماني بدم هوم»*.

وحين أبصرت جواد «تيان آن مان» انتصبتْ «وين» واقفةً، ركض في اتّجاهها. ودون أن ينزل عن جواده ناولها صرّة فيها ملابس مصفرّة. وقال:

- اِحتفظ «كيانغبا» بهذه الصرّة في الدّير طيلة سنين، وكلّ ما يعرف عن محتواها أنّه ينبغي تسليمها لامرأةٍ صينيّةٍ من «سوزهو» تُدْعى «شو وين». وقد حاول مرارًا أن يعثر على من يُوصِلها إلى «سوزهو». لكنْ لا أحد من المسافرين قبل بأداء هذه الخدمة. لقد تحسّنت حال رئتيه- فقصّ عليّ حياته. وأظنّ أنّ هذه الصرّة تخصّك.

8
جنازة سماويّة

كانت «وين» تجلسُ تحت الخيمة منبهرةً بالصرّة. يخالجها إحساسٌ بأنّها تتنفّس، وأنّها تنتظر أمرًا من «وين» لتعود إلى الحياة. ثمّ انتهت إلى أن حسَمَتْ أمْرَها بفتح القماشة الأليفة لديها بيديْن مُرْتَعِشَتين.. قماش الضّمائد الّذي يستعمله الأطبّاء في الصّين. كان بداخله دفتران، لا تحتوي صفحاتهما إلاّ على القليل من الكتابة، لكنْ كان كلّ رمز هو من رسم[1] الرّجل الّذي يملأ أفكارها ليلَ نهارٍ بقدر ما تمتدّ بها الذّاكرة.

كان الدم يضطرب في شرايين «وين». بعد كلّ هذه السّنوات من البحث والشكوك خالجها إحساسٌ بأنّها ترى زوجها وتشمّه وتلمسه. تصفّحتْ الدّفتريْن على مهلٍ لا تكاد تجرُؤ على لمسهما خشية أن تتبدّد الأوراق بين أصابعها. كانت الصّفحات الأولى تحتوي على ملحوظات طبّيّة تتعلّق بالأمراض الّتي أصابت «كجون» ورفاقه عندما حلّوا بالتّيبت، وبكيفيّة علاجها. أمّا الدّفتر الثاني فكان مذكّرات شخصيّة. كتب «كجون» على الصّفحات الأولى أنّ هذا الدّفتر موجّه إلى زوجته «شو وين» الّتي يحبّها من كلّ قلبه.

---

(1) كلّ حرف من الكتابة الصّينيّة هو رسم لفكرة مركّبة.

لم تدْرِ «زهوما» ولا «تيان آن مان» ما يقولانه لصديقتهما، فقد كانت ترتعش من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها وتنتحب. أشعل «تيان آن مان» مصباحًا علّقه قريبًا منها ووضع قربه زجاجةَ زيتٍ ليزوّد المسرجة. وأضافت «زهوما» بعض أقراص الرّوث إلى النّار. ثمّ بسطت لحافًا لفّت به «وين» وغادرت مع الرّجل الخيمةَ دون ضجّة.

شرعت «وين» تقرأ المذكّرات بخوفٍ شديد. تدرّجت الكتابة من الوضوح إلى التّداخل بتعاقب الصّفحات. كانت حكاية «كجون» مُدوَّنةً هناك. خُصّصت الصّفحات الأولى بأكملها للحديث عمّا فوجئ به كجون أمام مقاومة التّيبتيّين. فقد أوهموه أثناء التّدريب بأنّ المفاوضات بين الحكومة الصّينيّة والزّعماء الدّينيّين التّيبتيّين قد كُلّلت بالنّجاح. وقيل له إنّ مواطنيه من التّيبتيّين الكرماء والشّرفاء يستقبلون جيش التّحرير الشّعبيّ بحفاوةٍ بالغة. ولم تمكّنه الدّروس الّتي تلقّاها عن العادات التّيبتيّة وعن سياسة الحكومة تجاه الأقليّات من مجابهة الاعتداء الّذي جابهه هو ورفاقه. فقد كانت وَحْدتُه مكوّنةً من شبابٍ من المزارعين الأمّيّين ممّن مُلئت رؤوسهم بشعارات من قبيل؛ «لنحرّر كامل التّراب الصّينيّ» أو «لنواصل الثّورة إلى النّهاية» و«كلّ مقاوم هو عدوّ الثّورة». كان «كجون» وقائد الكتيبة الجنديَّيْن الوحيدَيْن المتعلّمَيْن. وتفطّنا شيئًا فشيئا إلى أنّ التّيبتيّين يعادونهم لاعتقادهم بأنّ الصّينيّين شياطين قد أُرْسِلوا للقضاء على عقيدتهم. وكانت وحشيّة التّيبتيّين خرافيّةً؛ فهُمْ يحاولون باستمرار القضاء على هؤلاء الشّياطين، لذلك دافع الجنود الصّينيّون عن أنفسهم.

تقدّمت وحدة «كجون» لمدّة أسابيع في اتّجاه الشّمال مع حرصها

على تجنّب المناطق الّتي يسكنها التّيبتيّون والرّحل مع قطعانهم. وفي مساء يوم عند الغروب سمعوا أنينَ رجل يحتضر، كان الأنين آتيًا من الجبل. انطلق «كجون» وقائد الكتيبة، وكلاهما يتكلّم قليلاً من اللّسان التّيبتيّ، لاستطلاع الأمر. وعند اقترابهما من الصّوت الرّهيب شاهدا ما خلع قلبيْهما من الرّعب: طائفة من الطّيور الكواسر تمزّق رُكامًا من الجثث الملطّخة بالدّماء. وبين الجثث رجل ما فتئ حيًّا، يقاوم بيأس ليصدّ عنه الطّيور. سحب «كجون» مسدّسه فأردى أحد الطّيور قبل أن يتمكّن القائد من منعه.

سُمع حفيفُ أجنحة، وابتعدت الطيور. تَلى ذلك صمتٌ مخيف. وكان الرّجل الجريح يتلوّى على الأرض. تهيّأ «كجون» للالتحاق بالجريح عندما سمع صوتَ زئيرٍ غاضبٍ يخترق الأجواء كعاصفة. رفع عينيه ورأى على الرّبوة طائفة من التّيبتيّين الغاضبين يراقبونه. سرَتْ في ظهره رعدة، وأدرك أنّه باندفاعه في نجدة محتضِرٍ قد شوّش الطّقس الجنائزيّ وقتل طائرًا مقدّسًا. أرعبته فكرة ما سيترتّب عن فعله المتسرّع ذاك، لكنّه لم يفهم لمَ وُضع رجلٌ حيٌّ بين الجثث.

تقدم «كجون» من الرّجل وعينه لا تترك الجماعة. فوجده غائبًا عن الوعي. ضمّد جراحه وحمله حتّى موقف جواده والتحق هو والقائد بوحدتهما وهو يمسك الجريح المسجّى أمامه.

حاولت الوحدة مواصلة الطّريق ذلك المساء وهي تبحث عن مكانٍ مناسبٍ لإقامة المعسكر، لكنّها حيثما ولّت وجهها وجدت التّيبتيّين وقد قطعوا عليها الطّريق وهم يرشقون الصّينيّين بالشّتائم. فكانت تخشى أن تقع مهاجمتُهم بين لحظةٍ وأخرى.

رأى «كجون» الرّعب يرتسم على وجوه الجنود، وكانوا يحسَبون أنّ التضحية في سبيل الثورة شرف. لكنّهم كانوا يرتعبون لمجرد التفكير في العقاب الدّينيّ الّذي ينزله التّيبتيّون بخصومهم. وصارت معنوياتهم في الدّرك الأسفل. لم يكن لديهم ماء للطّبخ، وبقي لديهم القليل من الزّاد وقليل من الحطب للتّدفئة، ليحتموا من البرد الجليديّ لليل المرتفعات.

في هذا الموضع من المذكّرات أصبحت كتابة «كجون» أكثر اضطرابًا، كما لو أنّه كتبها على عجل. كانت «وين» تتطلّع إلى قراءة الصّفحة الأخيرة فورًا، لرغبتها الجامحة في معرفة الحقيقة، ولكنّها كانت مدينة لـ«كجون» بمطالعة القصّة من أَلِفِها إلى يائها.

ظلّ «كجون» ينازع نفسه في ما ينبغي عليه فعله. من البديهيّ أنّ التّيبتيّين لن يسمحوا لهم بمواصلة الطّريق، بل كانوا يريدون الانتقام. وما هي إلّا مسألة وقت قبل أن يبادروا بالهجوم، ولا أحد يعلم كم من جنديٍّ سيلقى مصرعه، وقد أرسلت الوَحْدةُ نداءاتٍ بالراديو إلى مقرّ القيادة، لكنّها لم تتلق أيّ ردّ، ولم يكن من المؤكّد وصول تعزيزات، فإن لم تُسارع بالتّحرّك فلا أحد يعلم ما يمكن أن تؤول إليه الأمور.

شعر «كجون» أنّ عليه -وهو المسؤول عن هذا الوضع- أن يذهب للقاء التّيبتيّين ليشرح لهم لماذا فعل ذلك. فربّما يستطيع بتلك الطّريقة أن يفاوضهم من أجل هدنةٍ لرفاقه. وضع قلمه والشّك في ما يخبّئه لهم الغدُ يملأ قلبه.

حالما تنفّس الصّبح ذهب «كجون» لملاقاة التّيبتيّ الذي أنقذه من مخالب النّسور، استطاع هذا الأخير أن يتناول بعض الطعام والنطق باسمه: «كيانغبا». وروى له بصعوبةٍ بالغة ما حدث له.

كان كاهنًا شابًّا من دير الشّمال، جاء إلى هذه المنطقة صحبة كهنة آخرين لطلب الأعشاب الطّبّية. لكنّه وقع في رحى المواجهات بين التّيبتيّين والصّينيّين، وفضلاً عن ذلك أصابه المرض. فقد كانت رئتاه شديدتي الوهن، وبين الفينة والأخرى يُغمى عليه.. حمله رفاقه إلى ديرٍ قريب، لكنّه علم هناك أنّ الجيش الصّينيّ يقترب. وفي حالةٍ من الهلع أجبر الكهنةُ «كيانغبا» على ابتلاع محلول ثمّ أخفوه في ممرّ بين الصّخور خارج الدّير وولّوا هاربين .

لم يدرك «كيانغبا» ما حدث إثر ذلك على وجه التّحديد، لكنّه كان يعتقد أنّ جماعةً من الرّجال في طريقهم إلى طقسٍ جنائزيّ قد وجدوا جسده -وكان يبدو بلا حياة- فأضافوه إلى الجثث. ويُرَجِّحُ أنّ الرّجال فرّوا من موقع الجنازة حين سمعوا باقتراب الصّينيّين، فلم يتسنّ لهم تغطية الأجساد الّتي نُزِعت عنها الأكفان لتقطيعها. وفي اللّحظة التي هجم فيها طائر كبيرٌ على صدره، استعاد «كيانغبا» وعيه.

وحين فرغ من حكايته، جثا الرّجل عند قدمي «كجون»، وشكره على إنقاذ حياته، رفعه «كجون» وسأله:

– هل بإمكانك أن تتحرّك؟

هزّ الكاهن رأسه إيجابًا.

– هيّا اتبعني إذن.

أخذه حيث كان القائد يتناول فطوره الزّهيد.

شرح للقائد أنّ «كيانغبا» مستعدّ لمرافقته إلى مورد ماء، واستأذن منه لمغادرة الوحدة، فأَذِن له مُكبِرًا فيه شجاعته.

جلس «كجون» ليخطّ الفصل الأخير من مذكّراته. ثم حرّر رسالةً إلى «شو وين»:

عزيزتي

لن أعود اليوم، سيروي لك بعضُ النّاس ما حدث لي. فأرجو أن تغفري لي.

أحبّك. وإن أذِنَ لي بدخول الجنّة فسأعمل على أن تَحْيَي حياةً طيّبة، وسوف أنتظرك هناك. أمّا إذا أدخِلتُ الجحيم فإنّي سوف أسلّم كلّ ما أملك لأسدّد الدّيون الّتي كانت علينا في الحياة الدّنيا، وسأعمل لتتمكّني من اللّحاق بالسّماء حين يحين الحَيْن. فإذا صرتُ هامةً فسأحرسك ليلاً وأذبّ عنك جميع الأرواح الّتي قد تعكّر نومك. فإن لم يكن لي أيّ موضع في أيّ مكان فسأذوب في الهواء حتّى أكون في كلّ نَفَسٍ من أنفاسك.

شكرا لك حبيبتي.
زوجك آلّذي يفكّر فيك ليل نهار
كجون
كُتب بتاريخ يوم لا أحد منّا ينساه.

قلبت «وين» الصّفحة، لكنّ بقيّة الصّفحات كانت بيضاء. تملّكها دوارٌ وغشيَتْها سحابةٌ سوداء ثمّ أُغمي عليها.

وحين أفاقت كان الظّلام الدامس يخيّم داخل الخيمة، ما عدا الشّعلة الرّاقصة لسراج زبدةٍ صغير، وكان «تيان آن مان» و«زهوما» الجالسان بالقرب منها يُتمتمان بالصّلوات. غرقتْ في نوم عميق، وهناك.. في أحلامها، سمعتْ أغنية الحنين.. يغنيّها «كيانغبا» الناسك..

لم تكن تعلم كم مضى عليها من زمنٍ وهي نائمة. وحين استيقظت تناولت «زهوما» يدها:

– هناك شيء ينبغي أن تشاهديه.

خارج الخيمة كانت يافطاتٌ كبيرةٌ من «الخاطا»، أكثر ممّا يمكنها عَدُّه، تخفق في الهواء، وحشدٌ من النّاس في انتظارها. شاهدت النّاسك «كيانغبا» جالسًا أرضًا وسط الحشود وحوله اثنان من اللّاما .

– هذا ليس شبحًا، قالت «زهوما»، لقد جاء من الدّير المجاور على جواد. هو يشكو ذات الرّئة، لكنّه أحسّ بأنّه قد يقدر على ملاقاتك. هو يريد لقاءَ زوجة الرّجل الّذي أنقذ حياته.

انتصب النّاسك مرتعدًا، وتقدّم من «وين» وأهداها «خاطا» وانحنى أمامها بكلّ احترام وخشوع.

– أيّها النّاسك الفائق الاحترام، قالت «وين» لقد قرأتُ في مذكّرات زوجي أنّه كان يرغب في أن يشرح للرّجال النّاقمين المطوِّقين لوحدته الأسبابَ الّتي دعته إلى قتل نسرٍ مُقدّس، وقد كنت معه، فهل يمكنك –رجاءً– أن تخبرني بما حصل؟

جلس النّاسك من جديدٍ على العشب وأشار على المرأة أن تجلس بالقرب منه.

- ذكر لي زوجك أنّه يعرف طريقةً لاستعادة الصّقر المقدّس الّذي قتله. وقد أراد أن أرافقه إلى الرّجال الّذين أغضبهم ليُصلح ما أفسده عليهم من طقوسهم الجنائزيّة. فصدّقتُه وقدته إلى أعالي الجبل. في البداية حاولتُ أن أشرح بغباوةٍ ما حدث لي، لكنّهم رفضوا الإصغاء إليّ، بل ظلّوا ينظرون إليّ في هلع ظنًّا منهم أنّي تحوّلتُ إلى شبح، لأنّ الشّياطين قاطعت طقس الجنازة، واعتقدوا أن الصّقور المقدّسة لن تعود إلى الأرض أبدًا ما دام أحدُها قد قُتِل، وأنّ الشّعب التّيبتيّ مصيره إلى الجحيم. وكانوا على وشك الوقوعِ علينا بخناجرهم، لولا أنّ زوجك أشهرَ مسدّسه وأطلق رصاصة في الهواء. وحدثت لحظةٌ من الذّعر، فاغتنم الفرصةَ وصرخ فيهم بأن يطلقوني.

- أرجوكم أن تنصتوا، قال باللسان التّيبتي، دعوا الرّجل يلتحق برفاقي، ليقول لهم إنّ عليّ البقاء هنا، لأكفّر عن إهانتي لرُسُل الأرواح. سأعيد الصّقرَ المقدّس، وإلاّ فلن يعود أحدٌ من صقوركم، وبذلك لن تدخلوا الجنّة أبدًا.

تقهقر الرّجالُ على مضض ليسمحوا لي بالمرور. وفيما كنت أبتعد سلّمني زوجك صُرّةً وقال:

- إذا حدث لي مكروهٌ، فاعمل على أن توصِلَ هذا إلى زوجتي.

كنت ما أزال مُنهكًا، وأجد مشقّة في المشي بسرعة. وحالما تجاوزت الخطرَ توقّفت لأستريح في دغل. ومن هناك، أبصرتُ زوجك وهو يضع مسدّسه وينحني على الأرض، ثمّ جثا أمام الجمع يحدّثهم. وكان كلامه يصلني في مخبئي:

- ما من أحد، لا أنا ولا بقيّة الصّينيّين، جاء إلى هنا يريد بكم شرًّا. كلّ ما أردناه هو أن ننقل لكم معارفنا لتحسين ظروفكم المعيشية، على غرار الأميرة «وينشانغ»[1] التي علّمتكم الحياكة وفلاحة الأرض ومعالجة الأمراض وذلك منذ أكثرَ من ألف عام. ورغم أنّنا نحمل أسلحة، فليس لنا نيّة استعمالها ضدّكم، لا نريد استعمالها إلّا كما تستعملونَ خناجركم لتدافعوا بها عن أنفسكم ضدّ الأشرار.

وأمسِ أردتُ أن أنقذ أحدَ كهنتِكم. لم يكن ميّتًا كما تظنّون. لكنّي أُدْرِكُ أنّي ارتكبتُ خطأً بقتل أحدِ رُسُلكم المقدّسة. وأودّ أن أكفّر عن خطئي. سأقدّم حياتي لتعود العُقبان. وإنّه، حسب عقيدتكم، لا تأكل الصّقور لحمَ الشّياطين. وحين أموت أرجو منكم أن تقطّعوا جسدي بخناجركم لتعرفوا إن كنّا نحن الصّينيّين نشبهكم أنتم التّيبيتيّين في الموت. فإن أرسلت الأرواحُ رُسُلًا، من الصقور فأرجو أن تعتقدوا بأنّنا نحن الصّينيّين نعتبرهم أصدقاء لنا، وأنّ الحقد والدّم المُراق من عمل الشّياطين، وأنّنا في نظر الأرواح جميعنا إخوة.

رفع «كيانغبا» عينيه إلى السّماء.

- حينها تناول زوجك مسدّسه من على الأرض، واستدار نحو الشّرق، نحو بلده، وأطلقَ رصاصة في رأسه.

توقف النّاسك عن الكلام بُرهةً. نظرت «وين» هي الأخرى في اتّجاه السّماء. وبعد دقائق من الصّمت الخاشع عاد النّاسك إلى روايته:

---

(1) عاشت بين 623 و680 م تقريبا. كانت إحدى زوجتي الإمبراطور التّيبيتي «سونغتسا- نغامبو»، وإليها وإلى ضرّتها ينسب إنشاء مقدّمة للبوذيّة وإقامة عديد المعابد.

- عدتُ إلى المعسكرِ بمِشيتي العرجاء والقلبُ يملؤهُ الحزنُ، فرويت للقائد ما حدث، فانطلق مُسرعًا إلى المكان الّذي وصفتُه له، ومن ورائه بقيّة الجنود. ولكنْ، لم يكن بالإمكان افتكاك زوجك من الصّقور. فقد قطعه الرّجال بسكاكينهم، وامتلأ المكان بالكواسر الشَّرِهة.

- لربّما، وجدت هذه الطّيور في جسد «المنبا»، أضاف الناسك، صدق رغبته في السّلام، وربّما كان هناك أمرٌ سحريٌّ في ظهور هذا العدد الهائل من الطّيور. ومهما يكن السّبب فقد تأخرت الطيور كثيرًا وهي ترسم دوائر فوقها دوائر حول قمّة الجبل.

رأى الجنود أنّ التّيبتيّين ينظرون إليهم من بعيدٍ في احترام. فقد أدركوا، بما فعل زوجك، أنّ الصّينيّين يمكنهم، هم أيضًا، أن يُرفَعُوا إلى السّماء بواسطة الطّيور المقدّسة. وعلّمهم موتُه أنّ لحومَنا وقلوبَنا شبيهة بلحومكم وقلوبكم. وبينما كان الجنود يعودون إلى المعسكر، كانت أعداد من «الخاطا» تجلّل طريقهم مُؤدّيةً رقصةً للذكرى تحت السماء الزرقاء والسحب البيضاء.

انطلق القائد بجنوده. ورجعتُ إلى دَيْري. وقبل أن نفترق سألني القائد ما إذا كان بإمكاني الاحتفاظ بصرّة «كجون» والعثور على مسافرٍ نزيهٍ يوصلها إلى امرأةٍ من سوزهو تُسمّى «شو وين». فقد حسِب أنّه ورجاله لن يعودوا إلى الصّين أحياء. فوعدتُه بتنفيذ الوصيّة. وعندما رجعتُ إلى الدّير طلبت من القسّ أن يأذن لي بالرّحيل، لأسيح في الأرض وأنا أتغنّى بقصّة «المنبا» الصّينيّ الّذي أنقذ حياتي وغسل بدمه الحقدَ بين التّيبتيّين والصّينيّين. ومنذ ذلك

الحين لم تسِل قطرةُ دم واحدة بين الفريقين في هذه المنطقة. وقد حاولتُ كثيرًا، ولكن دون جدوى، أن أجد مسافرًا أثقُ فيه لأرسل إليك الصرّة، وها أنتِ من يأتي إليّ.

بعد أن استمعتْ «وين» إلى حكايةِ النّاسك سجدتْ أمام حشدٍ المتفرجين بخاطاتهم الخافقة ورتّلت صلاتها:

- أوم ماني بدم هوم.

9

رحلة العودة

حان الوقت لتغادر «وين» منطقةَ البحيرات المائة وجبلَ «آمني ماشن» المكلّل بالثّلج وبقيّةَ القمم في «كينغهاي». لقد ضربتْ في هذه الأرض سنينَ عددا، وملأت روحَها مراعيها وأنهارُها وجبالها المقدّسة. هنا عرفت كلّ مسرّاتِ الحياة وأحزانها. هنا كبُر حبّها لـ«كجون»، ووجدتْ وطنَها الرّوحيّ، وحتّى لو رحل جسدُها فإنّ روحها ستظلّ هنا حيث يرقد زوجها. وهي تدرك أنّها ستكون في الشّهور القادمة والسّنوات الآتية، كطائرةٍ ورقيّةٍ مشدودةٍ بخيطٍ لا مرئيٍّ إلى جبل «آمني ماشن».

قسمت كتابها «المحاولات» إلى قسمين بصفحاته الّتي اكتظّتْ بكلّ كلمات الانتظار. ستأخذ أحدَهُما معها إلى الصّين، وتترك الآخر للنّاسك العجوز «كينغبا». وبهذه الطّريقة فإنّ جزءًا من «كجون» وجزءًا منها سيواصلان حياتهما في التّيبت.

تقرّر أن يغادر كلّ من «وين» و«زهوما» و«تيان آن مان» إلى مدينة «لاسّا»، وهي أقدمُ المدن التّيبتيّة وأقدسُها. وهناك سيمكنهم الاستعلام عن وسائل النّقل المتاحة للذّهاب إلى الصّين. لقد أقرّت

«زهوما» العزم على القيام بآخر سفرة في بلاد صديقتها. أمّا «تيان آن مان» فكانت به رغبة في مشاهدة السّاحة التي أوحت إلى «زهوما» بأن تطلق عليه ذاك الاسم، وذلك قبل أن يعود إلى الدّير.

كان السّفر إلى الجنوب مُضنِيًا، شديدَ الوحشة.. لكنّهم بعد أن عبروا سلسلة «تانغولا» الجبليّة اعترضهم في الطريق عددٌ كبيرٌ من المسافرين، أفضَتْ بهم الطّريق إلى بلاد أكثر أُنسًا. وفاجأتهم أيّما مفاجأة رؤيةُ وجوهٍ صينيّةٍ في الأسواق والمعارض، وكانت بعض المطاعم والدّكاكين تحمل لافتاتٍ مكتوبةً بالخطّ الصّينيّ، خالجهم إحساسٌ بأنهم في عالم آخر أو في زمن آخر. بل إنّهم وجدوا أنفسَهم يوْمًا في ساحة القرية حيث كان الشّباب يرتدون خليطًا ملوّنًا من الملابس الصّينيّة والتّيبتيّة ويتبخترون على أنغام الموسيقى، قال أحد المشاهدين إنّ الأمر يتعلّق باستعراضٍ للموضة.

لم يكن ما شاهدوه خلال سفرهم شيئًا يُذكر إزاء الشّوارع العامرة بالحياة في «لاسّا» الّتي يُشرف عليها قصر «بوتالا» المنيف. ولّما كان الأصدقاء الثّلاثة يفتحون لهم طريقًا في شوارع المدينة اعتراهم الوهنُ لشدّة ما أنكروا من الضّجيج والزّحام والرّوائح والأصوات. وكانت «وين» يغمرها حنينٌ جارفٌ إلى بلدها. وما عدا المعابد والملابس التّيبتيّة، خُيّل إليها أنّها قد عادت فعلاً إلى الصّين. أمّا «تيان آن مان» فكان منبهرًا تمامًا بما يرى. وقد بدا له استعمال كلّ هذه الأشياء الغريبة لغزًا. أمّا «زهوما» فكانت تبدو متحمّسةً ومندهشة.

- ما أراه لا يشبه التّيبت في شيء، قالت.

أشار «تيان آن مان » بإصبعه إلى جماعة من اللّاما وراء منضدةٍ تُعرض فوقها أشياء دينيّة: مسبحات وأعلام للصّلوات وجماجم جواميس مرصّعة بالحجارة الثّمينة وقرابينُ غذائيّة. عجبت «وين» و«زهوما» بدورهما وهما تشاهدان كهنةً يمارسون التّجارة.

في السوق، قايضت «زهوما» عقدًا نادرًا بقلم لتقدّمه هديّة إلى صديقتها، وقميصًا جديدا لـ«تيان آن مان» ووشاحًا لها واحتفظت لنفسها ببعض المال. لقد اختفى كثير من حُليّها الموروثة بمرور السّنين، لكنّها ما فتئت تملك ما يكفي ثلاثتَهم في رحلتهم إلى الصّين.

كان المساء يقترب، وكان عليهم البحث عن مكان للمبيت. فعثروا في أحد الأزقّة على فندقٍ يديره أستاذٌ صينيٌّ متقاعد.

أثناء اللّيل سمعت «وين» و«زهوما» طرقًا لا ينقطع على باب غرفتهما. وعندما فتحت «وين» كان «تيان آن مان» يقف على العتبة وهو يتّقد حماسًا:

- هيّا، انظرا، إنّما نحن في الجنّة.

تبعتاه إلى غرفته فوق السّطح. اتخذ مكانه بالقرب من النّافذة. كانت «لاسا» تتلألأ بآلاف المصابيح الكهربائيّة. تبادلت «وين» و«زهوما» النظرات.. فقد قضّتا ليالي أخرى في «نانكين» وفي «بيكين»، وكان من الصّعب أن تتصوّرا كيف تبدو مدينةٌ حديثةٌ في عينيْ رجلٍ لم يعرف الكهرباء أبدًا.

في صبيحة اليوم التالي أعلم صاحبُ الخان «وين» أنّ بإمكانها استعمال حمّامه. وفيما كانت تقف تحت رشّاش الماء البدائيّ المتمثّل في

خرطوم بلاستيكيّ ينزل من جردلٍ معلّقٍ فوقها تذكّرت الاغتسالَ الفاخر الّذي كانت تحظى به في القاعدة العسكريّة بـ«زهنغزهو» منذ سنواتٍ خلت في بداية رحلتها إلى التّيبت، وما كانت لتعلم أنّ قدمها لن تطأ قاعة حمّام حتى يومها هذا. أمّا «زهوما» فقد قالت إنّها لا تدرك هذه البدع الصّينيّة، ودلكت جسدها بأخذ الماء من وعاء. وأمّا «تيان آن مان» فقد رأى أنّه لا يغتسل إلّا في النّهر، ولم تفلح المرأتان في حمله على تغيير رأيه.

وفي ساعة متأخرة من الصباح ذهبوا لزيارة قصر «بوتالا». كان القصر أعجبَ بنايةٍ رأتها «وين» في حياتها. وطالعها جمعٌ من النّاس يصعدون السلّم العظيم ويتوقّفون كلّ درجتين أو ثلاث لينحنوا إجلالا، فربّما خطر لـ«كجون» زيارة هذا القصر معها. وربّما كان رحيلها من دلتا «يانغ تسي» إلى التّيبت من أجل أن تصعد هذا السلّم وتُقبلَ في ديانة الأرواح قدَرًا مسطورًا.

ولمّا دخلوا القصرَ، عبروا ممرّات مُعتمة واخترقوا قاعةً عظيمةً للمحاضرات. ثمّ عبروا ساحاتٍ ومعابدَ. كانت الغرفُ مليئةً بالكتب والمَطويّات المقدّسة والمعلّقات الحائطيّة البديعة التطريز والتّماثيل المجسّدة لبوذا، وهي موضوعة في قماش مزركش بالذّهب. شاهدوا الأوشحة الملوّنة، والمذابح العديدة. وحيثما ولّوا أنظارهم كانوا يرَوْن لمعان الأضواء الصّفراء تُشرِقُ من مسارجَ تُنار بزبدة الجاموس.

وعند حلولهم بما يسمّى «القصر الأبيض»، بهتوا لما شاهدوه من بذخ في إقامة «الدّلاي لاما»، فقد كانت العمارة والأثاث في

غايةٍ من رهافة الذّوق، وكانت هناك أباريقُ متقنةُ الصّنع وأوانٍ من اليشْم موضوعة على موائد الشّاي، وملاءات تسحر الأنظار ببديع تطريزها. أمّا في «القصر الأحمر» فقد شاهدوا مدافنَ مرصّعة بالذّهب والحجارة الكريمة تحتوي على رُفات الرّهبان «الدّلاي لاما». لم تكن «وين» لتشكّ يومًا في احتواء التّيبت على كلّ هذه الثّروات.

أخبرهم كلُّ الّذين اتّصلوا بهم في مدينة «لاسّا» بأنّهم يحتاجون إلى ترخيص من مكتب الموظّفين التّابع لـ «وحدة العمل» الّتي كانوا ينتمون إليها قبل الذّهاب إلى الصّين، وأنّ بإمكانهم السّفر إلى بيكين بالطّائرة. لكنّ ذلك لا يُمكن دون إذنٍ كتابيّ. ارتجفت «زهوما» و«تيان آن مان». فيم تتمثل «وحدة العمل»؟ وهل يملكان مثل هذه الأشياء؟ وحين خطر لـ«تيان آن مان» أنّ الدّير الذي ينتمي إليه يمكن أن يكون «وحدة عمله» تردّدت «وين» بين الضّحك والبكاء. وأبلغتهم بأنّها ستذهب إلى مركز القيادة العسكريّة لطلب وثائق السّفر الضّروريّة.

لم يكن العثور على مركز القيادة أمرًا عسيرًا. وعندما بلغوا المدخل، وهم يجهلون ما ينبغي فعله، جاءهم حارسٌ مسلّح وسألهم بأدب عمّا يريدون.

- أنا هنا على أمل أن أعثر على أثر لزوجي المفقود. قالت «وين».

أجرى الحارس عدة اتصالات هاتفيّة. وما لبث أن ظهر رجل يبدو أنّه من الضّبّاط. وبعد أن سألهم عن أسمائهم ودرجة القرابة بينهم صحبهم إلى قاعة اِنتظار مؤثّثة تأثيثًا حسنًا بدواوينَ وموائدَ للشّاي.

روت «وين» للضّابط حياتها ومغامراتِها مختصِرةً ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. وقالت إنّها تودّ أن تعرف ما بحوزته من المعلومات الحافّة بموت «كجون»، وهل هو على علم بأنّه مات مِيتة الأبطال، ثمّ أعلمته برغبتها في العودة إلى الصّين.

كان الضّابط ينظر إليها مندهشًا ويبدو عليه التّأثّر الشّديد بحكاياتها. كان على استعداد لمساعدتها، لكنّه نُقِل إلى التّيبت قبل ثماني سنوات فقط، ولم تكن لديه أيّ فكرة عن الطّريقة التي ينبغي انتهاجها للحصول على المعلومات المطلوبة.

سألتْ «وين» ما إذا كان بإمكانه منحهم ترخيصا للذهاب إلى الصّين، فشرح لها أنّه ينبغي أوّلا التّثبت من صحّة حكاياتهم. لكنّه سيتّصل بمكاتب بيكين ليرى ما في الأمر. ونبّهها إلى أنّها يجب أن تنتظر حدوث معجزة، لأن ملفّات كثيرة قد أُتلفت أو أُحرقت خلال الثّورة الثّقافيّة.

- ماذا تقصد بـ «الثورة الثقافية»؟ سألت «وين».

نظر إليها الضّابط مطوّلاً قبل أن يجيب:

إذا كان لك متّسع من الوقت فسأحاول أن أشرح لكَ ما حدث في الصّين في السّنوات الثّلاثين الأخيرة.

أصغت «وين» و«زهوما» مندهشتين إلى الضّابط، وهو يحدّثهما عن المجاعة الّتي عرفتها الصّين في السّتّينيات، والثّورة الثّقافيّة في السّبعينيات، وسياسة «دنغ سياوبنغ» الإصلاحية والانفتاح في الثّمانينيات، والإصلاحات الاقتصادية الجارية. أمّا «تيان آن مان»

فقد كان جالسًا متربّعًا في رُكنٍ يمرّر حبّات مسبحته ويرتّل النّصوص المقدّسة.

انتظرت «وين» عدّة أيّام قبل أن تصلها دعوةٌ من مكتب القيادة. هذه المرّة كانت الوحيدة التي سُمِح لها بالدّخول إلى المنطقة العسكريّة. استقبلها الضّابط الّذي التقته أوّل مرّة ورجلٌ أكبر سنًّا. قدّم هذا الأخير نفسه على أنّه أحد الجنرالات المكلّفين بقيادة الوحدات المتمركزة في «لاسّا». وقال إنّه راجَعَ كلّ الأسماء في الوحدات الّتي حدّثته عنها. ولسوء الحظّ أنّ أشخاصًا كثيرينَ كانوا يحملون اسم «وانغ ليانغ». فلم يتعرّف على الضّابط الّذي ذكرته له. ذلك أنّ ملفّات كثيرة قد فُقدت، والمعلومات المتعلّقة بتلك الفترة ليس موثوقا بها. بيد أنّهم تأكدوا من أنّ وَحْدةً تحمل الرّقم نفسه الذي قدّمته، قد وُجِدت فعلاً، وكانت متمركزة بـ «شنغدو»، لكنّ التّقارير تؤكّد أن جميع أفرادها قد قتلوا.

عند سماعها هذه الكلمات استولى الإحباط على «وين».

وعندما رأى اليأسَ على وجهها حاول الجنرال طمأنتَها، فأكّد لها أنّه سيواصل تحرّياته وأنّه سيبذل ما في وسعه. وقال:

- لا أعتقد أنّ اليأس سينال منك، ما من شخص عاديّ يمكن أن يُمضي نصفَ حياته في البحث عن قرينه. والحبّ الصّادق وحده يمكن أن يُحدث مثل هذا الإصرار.

اغرورقت عيناها بالدّموع. فاقترح عليها الرّجل أن تقيم هي وصديقاها في مقرّات القيادة العامّة حيث يجدون رفاهًا أكبر.

شعرت «وين» فجأةً بتعبٍ حادٍّ لم تشعر به قَطُّ من قبل. فسألها الجنرال قلقًا:

- هل أنتِ بخير؟

- أنا بخير، شكرًا، أشعر فقط بتعبٍ شديد...

- أؤكّد لك بأنّي أحسّ بما أنت فيه.

كان الفندق العسكريّ مجهّزًا بأصنافٍ عديدةٍ من الآلات الحديثة: أجهزة تلفاز وأفران كهربائيّة وحمّامات مجهّزة بدفّاق وبالماء السّاخن حسب الطلب... وكان «تيان آن مان» على الخصوص مرتبكًا من هذا المحيط، خمّنت «وين» أنّه لو لم يجد مثل هذه المعاملة الحسنة من الصّينيّين والتّيبتيّين لما بقي هنا.

ظلّت «وين» في الأيّام الموالية تنتظر الأنباء، وقد تعلّمت خلال السّنوات الّتي قضتها مع «جيلا» وأثناء التّيه مع «زهوما» و«تيان آن مان»، أن تضرب صفحًا عن رغباتها، وأن تترك الأمور تسير سَيْرَها الطبيعيّ.

أُتيحت لها عند إقامتها بالفندق فرصٌ أخرى للتّحدث إلى الجنرال عمّا مرّ بها. وكانت تصرّ على أن يصحبها كلٌّ من «زهوما» و«تيان آن مان» إلى الصّين. وبيّنت له أنّ «زهوما» تنحدر من عِلية القوم في التّيبت. وأرتْهُ بعض الحليّ الخاصّة بالعائلة لتؤكّد صحّة أقوالها. وعد الجنرال ببذل ما في وسعه ليجد إثباتات خطية تؤكد هويّة «زهوما». وفي عصر أحد الأيّام جاء للقاء السيّدتَيْن وهو يتقّد حماسًا، فقد عثر على وثائق تتعلق بآل «زهوما». وقال بتردّد:

- ولكنّي أخشى أن تكون الأنباء غير سارّة. فضيعتكم قد احترقت منذ سنوات.

لم تذكر له «زهوما» أنّها شهدت الواقعة. نظرت إليها «وين» وهي مطبقة الشفتين.

بعد يومين من ذلك عاد الجنرال، وكانت البسمة هذه المرّة تغمر وجهه كلّه.

- أحدهم في بيكين يذكر أنّه قرأ تقريرًا يصف موت «كجون» بالشّكل نفسه الذي رويتِه، وتذكّر شخصٌ آخر أنّه كان يشير إلى امرأة من «سوزهو»...وأعتقد أنّها أدلّة كافية لتأكيد هويّتك وتمكينك من السّفر إلى بيكين. هناك يمكنك أن تلتمسي الاستقرارَ والحصول على معاش من الجيش. أمّا عن «زهوما» فقد علمنا أنّه يوجد بالفعل ورثة لعائلتها وهذه الحليّ تثبت أنّها أنت.

كانت «وين» و«زهوما» تفيضان حبورًا كما لو أنّهما قد أُخْبِرَتَا عن حقيقتهما لأوّل مرّة منذ عشرات السّنين. لكن كان هناك أمر يُزعج «وين»، فسألتْ:

إن كانت هناك تقاريرُ تخبر عن مقتل «كجون» فلماذا لم يشر الإعلان إلى وفاته وإلى طريقة مصرعه؟ ولماذا لم يُسْنَد إليه وضع «الشّهيد الثوريّ»؟

- لا يمكنني إجابتك عن هذا السّؤال.

وفي أقلّ من أسبوع بعد ذلك، استقلت «وين» و«زهوما»

و«تيان آن مان» طائرةً متّجهة إلى بيكين وفي حوزتهم جميع الوثائق الضّرورية. تسلّمت «زهوما» رسالةَ توصيةٍ رسميّة لتستعيد عملها مدرّسةً بمعهد الأقلّيات ببيكين إذا كانت ترغب في ذلك. أمّا «تيان آن مان» فقد حصل على وثيقةٍ تثبت أنّه في زيارة رسميّة إلى الصّين قبل أن يلتحق بدَيْرِه لاحقًا.

لم تتفوّه «وين» بكلمةٍ واحدة طوال الرّحلة. فقد كان قلبُها مفعمًا بالقلق والخوف. هل مازال والداها على قيد الحياة؟ وأين شقيقتُها؟ وهل ستتعرّف عليها عائلتها؟

ثم فكّت لفافة الورق السّجينة منذ سنوات عديدة بين ضفّتيْ كتابها وربّتت على رسالةِ شقيقتِها بلطف. كان الزّمن قد مسح كلّ أثر للكتابة. وكان جزؤها من كتاب «المقالات» ثقيلاً كما لو كان مشربًا بالماء والتراب.

استفاقت «وين» من شرودها على صوتِ طفلٍ يسأل أمّه بالصّينيّة:
- أمّاه، لماذا تبدو رائحة التّيبتيّينَ كريهة؟

نهرته أمه:
- صه! لا تكن وقحًا، قالت معنّفة إياه، لكلّ من الصّينيّين والتّيبتيّين طرقُ عيشٍ مختلفة جدًّا. لا يجوز أن تتحدّث بهذه الطّريقة.

نظرت «وين» إلى ملابسها الرّثّة الباهتة. إن لم تكن صينيّة فمن تكون؟ ولكن قد يبدو هذا السّؤال بلا أهميّة. المهمّ أنّ رُوحها قد بُعثت. وقد كان «وانغ ليانغ» على حقّ حين قال «البقاء على قيد الحياة هو في حدّ ذاته نصر».

لم يكن هناك أيُّ وجهٍ للمقارنة بين غرفة الدّرجة الأولى حيث جلست «وين» في سفرتها من بيكين إلى «سوزهو»، وبين علبة السّردين الخانقة في قطار البضائع الّذي استقلته وهي تغادر «شنغدو» قبل ذلك بسنوات. كان الاختلاف كاختلاف الجنّة والجحيم.

وخلافا لما كان عليه الأمر في مرتفعات التّيبت، كانت المشاهد الطبيعيّة المتعاقبة من خلال النّافذة تبعث الإحساس بالحياة. نظرتْ إلى الدّور المقامة بالآجر الأحمر ذات الأسقف الرّماديّة الشّائعة في بيكين وهي تتذكرّ ما ألفته جيّدًا من دور بيضاء في دلتا «يانغتسي».

لم يصحبها «زهوما» و«تيان آن مان» في رحلة عودتها إلى «سوزهو»، فقد طلبت منهما أن ينتظراها في بيكين، كانت ترغب في رؤية عائلتها بمفردها.

وطوال الرّحلة كان الدّمع يتدفّق على قميصها من دون انقطاع، وحين يسألها مراقب القطار أو رفاقه عمّا إذا كان هناك أمرٌ يزعجها كانت تكتفي بهزّ رأسها.

عند وصولها إلى «سوزهو» لم تتعرف «وين» على المحطّة وظنّت أنّها محطّة جديدة. سألت عن كيفية الذّهاب إلى القديمة. ثمّ علمت أنّ القديمة أُزيلت. استوقفت سيّارة تاكسي، لكنّ السّائق لم يكن قد سمع بالمكان الّذي تريد الذّهاب إليه. وبعد جدلٍ كثير، فهم السّائق أنّها تقصد شارعًا في أطراف المدينة أُزيل منذ عشرة أعوام. كان ينظر إليها كما لو كانت مَسْخًا. واضطرّت إلى التّوسل إليه لينقلها إلى المكان. أمّا المشهد الّذي كان في انتظارها فقد أصابها بالدّهشة. اختفت ساحة

البيت، اختفى بيتُ شقيقتها بأبوابه القمريّة وحديقته الجميلة قربَ النّهر، وعوّض كلّ ذلك بصفوف من بناءات عالية. وقفت حائرةً لا تعرف ما تصنع ولا ممّن تطلب العون. ثمّ ذهبت لتسأل عمّالاً كانوا يصلحون أحد الطرقات، لكنّهم كانوا من الجنوب، من مقاطعة «آنهوي» وليس لديهم أدنى فكرة عمّا حصل في «سوزهو» في السّنوات الثّلاثين الماضية. أحسّت «وين» بأنّها ضائعة تمامًا.

في المساء استرجعت هدوءَها وبحثت عن فندقٍ غير بعيد عن المكان الّذي كان يقوم فيه بيتُ شقيقتها في ما مضى. وطُلِب منها في الاستقبال أن تستظهر ببطاقة هويّتها، لكنّها لم تفهم المقصود بالهوية، وعوضًا عن ذلك أدلت برسالة التّوصية التي تسلّمتها من المكتب العسكريّ التّيبتيّ. ولأنها لم تشأ هي نفسها أن تقرّر ما إذا كان عليها تسجيل نفسها باسم «وين» أم لا، رجتها الموظّفة أن تنتظر بعض الوقت ثمّ اختفت. وعندما عادت قالت لها إنّ بإمكانها الحصول على غرفة، لكن عليها قبل ذلك أن تسجّل اسمها في مقرّ البوليس.

في تلك اللّيلة رأت في منامها أنّها عادت إلى التّيبت صحبة «كجون» للبحث عن أبويها وشقيقتها في الجبال المقدّسة.. واستيقظت قبل الفجر على ضجيج الشّارع.

جلست إلى النافذة مرهقةً، كانت عيناها قد تعوّدتا على تعرّجات المراعي المترامية بلا نهاية، أمّا هنا فإنّ كل شيء يبدو مكتظًّا اكتظاظًا يصيبها بالدّوار، وقد اختفت مدينة طفولتها من دون أن تترك أثرًا، مدينتها الّتي طالما حلمت بالعودة إليها.

في تلك اللحظة سمعت وقْعَ نقرٍ على مِقرعةٍ من الخيزران تحت نافذتها، فخفق قلبها للذّكرى الّتي أثارها هذا الصّوت: فحينها كانت طفلة في «نانكين»، كان تجّار الأرزّ المتجوّلون يستعملون هذا الصّنف من الآلات، وحين يمرّون ببيتها كانت والدتها تشتري لها دائمًا طاسًا صغيرًا من الأرزّ الحلو المخمّر. خرجت من غرفتها مسرعة. وفي الخارج، رأت الصّورة المألوفة لبائع أرزّ يحمل على كتفيه جردليْن معلّقيْن في قضيب. ومن أحد الجردليْن كان يخرج بخار لإنضاج الأرزّ بواسطة مجمرة وضعتْ أسفلَه، ومن الآخر فاحت رائحة الأرزّ المخمّر المُسْكِرَة. لا شيء تغيّر، حتّى جاكتّة الرّجل ظلّت هي ذاتها الرّاسخة في ذاكرتها.

أسرعت «وين» لتلتحق بالبائع المتجوّل.

- للأكل هنا، أم لتحمليه معك؟ سألها.

- للأكل هنا.

نظرتْ إليه وهو يصبّ بيدٍ حاذقة ملعقةً من الحساء في طاس ثم يأخذ مقدارين من الأرزّ المخمّر بواسطة مِلقط من الخيزران.

- أتريدين بيضة؟ أم قليلًا من زهر الثّوم أم سكّرًا؟

- قليلاً من كلّ شيء من فضلك، إضافةً إلى ملعقة من السّكّر.

وحين ناولها الطاس انفجرت باكية.

- بعض الصّعوبات العائليّة؟ سألها البائع، لا تحزني، عيشي الحياة يومًا بيوم، وستمضي الأيام سريعًا.

وفيما كانت تتناول حساء الأرزّ الحلو ممزوجًا بدموعها، بذلت

جهدًا لتتمالك نفسها، وسألت البائع بصوتٍ مضطرب:

- كم مضى عليك من الزّمن في هذه النّاحية؟

- جئت المنطقة منذ عشر سنوات. لم أكن مفلحًا في شيء سوى بيع الحساء. لكنّه ليس عملاً سيّئًا ...هناك أمرٌ جديدٌ كلّ يوم، حتّى الشّارع الذي أسير فيه يتجدّد كلّ عام.

سألته ما إذا كان يعرف شقيقتها ووالديْها ووصفت له بيتهم. فكّر الرّجل لحظات وقال:

- أخشى أن يكون الجواب بالنفي. ففي السنوات العشر التي قضيتها هنا أزيلت هذه المنطقة، وأُعيد بناؤها ثلاث مرات. المرّة الأولى كانت بمناسبة «البناءات الثلاث» أو شيء كهذا. ثمّ مدّوا طريقًا وأقاموا جسرًا، ثمّ هدّموا كلّ ذلك. وبعد مدّة، باعوا قطعة أرض كبيرة لسنغافورة، وبات هناك كثير من الغدوّ والرّواح في المناطق القريبة، ولم نعد نسمع من لهجة البلد إلّا القليل.

وعاد إلى ناقوسه يقرعه، والمرأة واقفة في وسط الطّريق كالمشلولة من غرابة المدينة الّتي شهدت ولادتها.. مستلبة إلى حدّ أنّها لم تعد تسمع صوتَ المقرعة ولا ضجيجَ السّيّارات والدّرّاجات الّتي تكاد تلامسها.. لم يبق شيء غير الذّكرى. فهل سيكون لها من الشّجاعة ما تبدأ به رحلةَ بحثٍ جديدة وهي في هذه السّنّ؟

وضعت يدَها في جيب قميصها حيث تحتفظ بصورة «كجون». ولّما وضعت إصبعها على الصّورة الّتي قاسمتها حُلْوَ الحياة ومرارتها،

وتحوّلات حياتها الخارقة خلال سنوات عديدة همست:

- أوم ماني بدم هوم.

وفي تلك اللّحظة عبر السّماء سربٌ من الطّيور.

هنا، لم يكن توجد نسور مقدّسة ولا جنائز سماويّة.

سكتتْ «شو وين»... لكنّي لم أقدر على أن أكفّ عن التّفكير في تحوّلها من شابّة صينيّة في السّادسة والعشرين إلى بوذيّة تيبتيّة ناضجة.. ولا عن التّفكير في العلاقة بين الطّبيعة والدّين، وفي المكان والزّمان، وفي ما فقدَتْ.. وفي ما وجدتْ... وفي إرادتها وصلابتها وحبّها.

وظلّ اختفاء «شو وين» يلازمني. وإنّي لأرجو بصدقٍ أن يصلها هذا الكتاب لتدرك أنّ بإمكانها أن تقرأ قصّة حياتها وحبّها في كلّ مكان من العالم...

شيزان

جنازة سماوية

تأخذك «جنازة سماوية» إلى مناخاتٍ وفضاءاتٍ غريبةٍ ونائية لا عهد للقارئ العربي بها، إذ تدور أغلبُ أحداثِها في بلاد التيبت، أو سقف العالم حيث تختلط الأرض بالسماء والسماء بالأرض وحيث يتماهى الإنسان مع الطبيعة جسدًا وروحًا.

في هذا الفضاء المتلفّع بالأسرار الغامضة والأساطير تبدأ «شو وين»، الطبيبة الشابة رحلتها بحثًا عن زوجها الذي فُقِد خلال حرب الصين على التيبت، رحلة واجهتْ «وين» خلالها ما لا يخطر على بالٍ من مصاعبَ ومآسٍ لا تقلّ قسوةً عن قسوة الطبيعة في تلك الرّبوع النائية والمعزولة عن العالم. وأثناء بحثها المضني تتعرّف أكثر على الشعب التيبتي فتتطبّع بطباع أهله وتتبنى عاداتهم وتقاليدهم، وهكذا تتحوّل رحلةُ البحث عن الزوج المفقود إلى رحلةٍ داخل الذات، لتنتصر في النهاية قيمُ المحبّة والأخوّة على قيم الحرب والكراهية ولتنتصر هي أيضًا. ألم يقل لها أحد الضبّاط، وهي تُعدّ لمغامرتها: «إن بقاءها على قيد الحياة سيكون انتصارا في حد ذاته».

محمّد الخالدي

ISBN: 978-9938-24-007-8



